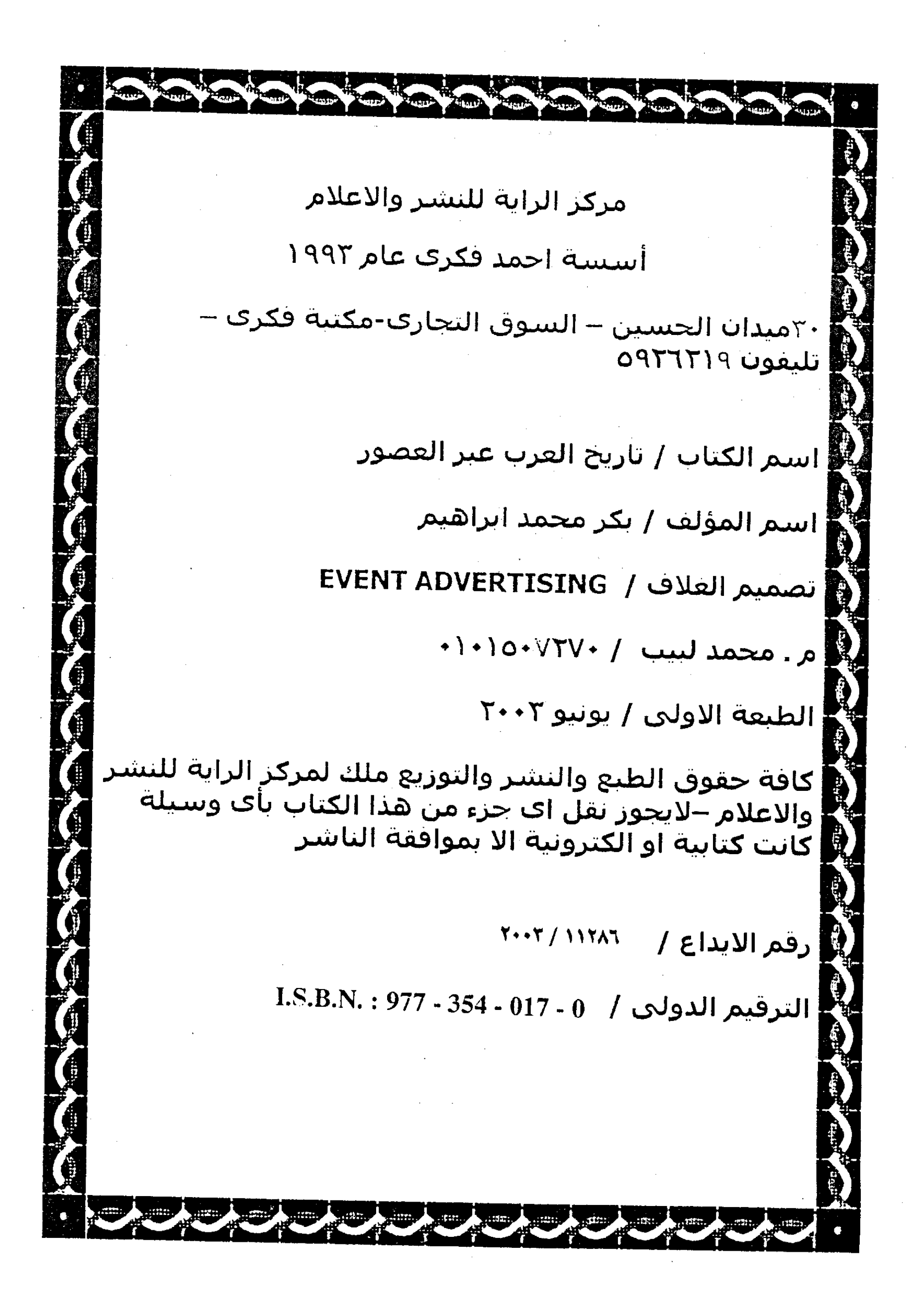
الشيخ / بكر محمد إبراهيم

تاريخ العرب عبر العصور

الناشر

مركز الراية للنشر والأعلام



مركز الراية للنشر والاعلام

أسسة احمد فكرى عام ١٩٩٣

٣٠ميدان الحسين – السوق التجارى-مكتبة فكرى –
تليفون ٥٩٣٦٦٢١٩

اسم الكتاب / تاريخ العرب عبر العصور

اسم المؤلف / بكر محمد ابراهيم

تصميم الغلاف / EVENT ADVERTISING

م . محمد لبيب / ٠١٠١٥٠٧٢٧٠

الطبعة الاولى / يونيو ٢٠٠٣

رقم الايداع / ١١٢٨٦ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى / I.S.B.N. : 977 - 354 - 017 - 0

المقدمة

الحمد لله خلق كل شئ فقدره تقديرا . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله ربه للناس بشيرا ونذيرا .

أشهد أن لا إله إلا الله الذى نزل على عبده الفرقان ليكون للعالمين نذيرا . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً .

وبعد ...

هذا الكتاب يتضمن أخبار العرب وقصصهم ودياناتهم ومذاهبهم وعقائدهم وعاداتهم وسلوكياتهم وموروثاتهم وكثيراً من معارفهم وعلومهم وصفاتهم وسجاياهم، وتاريخهم عبر العصور.

يجلى ماكانوا عليه من الكهانة والعرافة والطيرة وعبادة الأوثان والأحجار، وما ابتدعوه من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام وما كان من نوادرهم وفراستهم وعلوم قص الأثر والعيافة،

وماكان من التطير وأنواع النكاح وحروبهم وعوائدهم وخدمة البيت الحرام وما رووه من أخبار الكهانة والعرافة والغيلان والهواتف.

ويروى بعض أخبارهم فى الإسلام وأخبار الخلفاء والولاة وغير ذلك من الأخبار والعجائب والطرائف وتفسير الأحلام والرؤى، وتاريخ الكعبة المشرفة.

ومادة هذا الكتاب من التراث العربى والاسلامى ، وفيه قصة الكعبة المشرفة وتاريخها وبنائها وما جرى من أحداث تتعلق ببيت الله الحرام ومن عظم الكعبة ومن أرادها بسوء فأهلكه الله تعالى ، ولاغرو فالكعبة بيت الله الحرام وأول بيت وضع للناس ومهوى الأفئدة وبلد الرسول ﷺ وحجها يمثل الركن الخامس من أركان الاسلام .

والحمد لله الذى من علينا بالإسلام وأرسل إلينا رسول الرحمة والسلام عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

نشهد أنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين فتح الله به قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما.

والحمد لله أولا وآخرا.

الباحث الإسلامى

بكر محمد إبراهيم

قصة إبرهيم عليه السلام

نشأته عليه السلام:

ولد سيدنا إبراهيم خليل الله عليه السلام بالعراق.. فى أرض بابل.. فى عهد ملك طاغية اسمه نمروذ، وفى بلدة فدام أرام.

وأبوه : تارح بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن خالغ بن عابر بن شالح بن ارفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام.

ولقب تارح: آزر.

وقد نشأ إبرهيم عليه السلام وسط قوم ضالين، فريق كانوا يعبدون الأصنام ، ويتمحسون بها، ويدعونها رغبًا ورهبًا، ويرجون منها جلب الخير ودفع الضر، وفريق كانوا يعبدون الكواكب ويصنعون لها الهياكل، ويسمونها بأسماء من عند أنفسهم لم ينزل الله بها من سلطان (حجة) ، ويزعمون أنها أرباب، بعضها أشد من بعض، وأنها تُدعى فتجيب وتنفع وتضر.

وكان إبراهيم عليه السلام سليم الفطرة أوتى رشده من صغره وكان يخالف هذه العقائد الفاسدة، وأعانه عقله الرشيد، وقلبه الكبير، وضميره الحى على معرفة ربه، والاتجاه إليه، وهو لم يزل شابًا صغيراً.

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء:٥١].

ولما بلغ الأربعين بعثه لله رسولا إلى الناس مبشرا ونذيرا. وداعيا إليه بإذنه، فبدأ بدعوة أبيه، بأسلوب مقنع هادى، فيه أدب وتلطف مع رعاية لمقام الأبوة.

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

ذكر الله تعالى حوارًا بين إبراهيم وأبيه فى سورة مريم، لا تظهر فيه الشدة، ولكن تظهر فيه الملاطفة والملاينة والدعوة إلى تحكيم العقل والضمير. كر فيه النداء بلفظ الأبوة أربع مرت، وجعل نهاية الحوار سلاما عليه مع وعده بالاستغفار له، وإظهار الترحم عليه، والحفاوة به.

قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم].

وكان إبراهيم عليه السلام قد وعد بالاستغفار لأبيه على أمل أن يسلم، فلما رأى إصراره على الكفر بسبب التقليد الأعمى لقومه وبيئته وأبائه وأجداده وتعصبه لما ألف من الباطل، وحبه الغامر للمال والرياسة تبرأ منه وعدل عن الاستغفار له.

قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة].

ومعنى أواه : أى رجاع إلى ربه يتوب إليه ويستغفره . ويشكو إليه همه وحزنه، وما يلقاه من أبيه وقومه (حليم) لا يجهل على أحد، ولا يتجاوز حده فى القول أو الفعل، ولا يتكلم إلا بخير، والحلم جماع الفضائل وهو أكمل ما يكون فى الأنبياء، وقد ظهر واضحا فى سيرة حياته عليه السلام إلى جانب من اتصف به من سائر صفات مكارم الأخلاق وصبره على ابتلاءات الله تعالى له، لذلك قربه الله إليه وأراه ملكوت السماوات والأرض واتخذه خليلا.

وهناك مقال آخر من إبراهيم لأبيه سجلته سورة الأنعام فيه شئ من الحدة نتيجة إصرار أبيه على الكفر والضلال ولم يذكر هنا رد من آزر وكأنه لم يجد ردا يرد به على الحق الظاهر القاهر.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) ﴾ [الأنعام].

حواره مع أبيه وقومه :

وبعد أن بدأ إبراهيم دعوته لأبيه باعتباره أقرب الناس إليه رحما، ووجد منه صدودا وأعراضا، وسمع منه كلاما جافيا غليظا، اتجه إلى قومه – ومعهم أبوه – يدعوهم إلى عبادة الله وحده، بأسلوب مقنع واضح، وحجة ساطعة ، وبرهان لا يقبل الشك، فى حوار هادئ ذكره الله تعالى فى سورة الأنبياء والشعراء والصافات وغيرها .

وقد تكرر خطاب إبراهيم لقومه ليلزمهم الحجة ولعل الله تعالى أن يهديهم للإيمان. وكان كل حوار على حسب ما تقتضيه الظروف والمواقف، ومقتضيات الأحوال، ولعل أول حوار كان ما سجلته سورة الشعراء.

فقد كان حواراً يشبه الحوار الذى سجله مع أبيه من قبل، فقد بين لهم

بطريق الاستفهام أن هذه الأصنام لا تسمعهم حين يدعونها، ولا تنفعهم حين يتذللون لها ويطلبون منها، ولا تضرهم حين يستغيثون بها، فما رسعهم إلا أن يتعللوا فى عبادتها بأنهم وجدوا آباءهم هكذا يفعلون، فشهدو على أنفسهم بضضالة الفكر وسفه العقل، وفساد الرأى وسوء الفعل، والتعصب الأعمى للآباء والأجداد، وبهذا أقروا بأن أصنامهم لا تنفع ولا تضر، ولا تغنى عنهم شيئاً.

حدثهم إبراهيم عليه السلام فى لطف وبين لهم عقيدته، ومنهجه. وذكرهم بالبعث والنشور وما يلقى فيه الكافرون من خزى وعذاب، وما يلقى فيه أصحاب القلوب المؤمنه السليمة من نعيم مقيم فى جنات النعيم، بأسلوب يجذب النفوس المتمردة، ويأخذ بتلابيب العقول الحائرة، ويرقق القلوب القاسية من غير أن يجرح المشاعر أو يثير الحمية المتسلطة أو يبعث الأحقاد الدفينة، أسلوب يدعو إلى التفكير والتدبر والموازنة، بين ما هم فيه من باطل وبين ما يدعوهم إليه من حق ظهر.

يقول تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ

(٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء].

والحوار الثانى جاء فى سورة الأنبياء، يتميز بالحدة والشدة، وإعلان الحرب عليهم وعلى أصنامهم، وذلك لما أعيته الحيل فى هدايتهم وحملهم على الدين القيم الذى فطر الله الناس عليه.

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾ [الأنبياء].

تحطيمه الأصنام :

وقد عزم إبراهيم عليه السلام على تنفيذ ما أقسم عليه وتحين الوقت المناسب لذلك، فاغتنم فرصة خروجهم فى عيدهم للنزهة والسياحة، فتسلل خفية إلى بيت أصنامهم فحطمها وعلق الفأس على كبيرهم لعلهم يسألونه عن الذى حطم أصنامهم، ويلومونه على تمكينه من ذلك، فلا يجدون له جوابًا، ولا حراكا يتعلمون حينئذ علم اليقين صدق ما قاله لهم، فيستجيبون لدعوته ويؤمنون به.

قال تعالى :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾ [الأنبياء].

وفى سورة الصافات بيان الطريقة التى سلكها فى التسلل إليها، والآلة التى حطم بها فقال عز وجل

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)﴾ [الصافات].

فقال لهم إبراهيم عليه السلام بل الذى فعله هو كبيرهم هذا الذى ترونه قائما على هذه الأصنام، سخرية بهم وتسفيها لعقولهم.

كما سألوهم إن كانوا ينطقون، أى إن كان فى قدرتهم أن ينطقوا ، ويكشفوا عمن حطمهم.

فماذا كان جوابهم :

لقد رجعوا إلى أنفسهم يلومونها على ما وقع منها من تفريط فى حق آلهتهم، وكيف أنهم غفلوا عنها حتى تمكن إبراهيم من تحطيمها .

فاعترفوا وهم ناكسوا رؤوسهم بعجز آلهتهم عن النطق، ولكن الهوى تغلب عليهم فاشتدت عداوتهم للنبى الكريم، وأوصى بعضهم بعضا بإحراقه نصرة لآلهتهم المحطمة، وهو أسلوب من فقد الحجة والبرهان وهوى فى الضلال.

قال تعالى :

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا

ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴿٦٦﴾ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴿٦٧﴾ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

أى : أحرقوه بشدة، وتكلفوا فى إحراقه ما وسعكم.

وقد اتفقوا على ذلك وعزموا عليه، وجمعوا الحطب من أماكن عدة، وتقربوا إلى آلهتهم بهذا العمل، وأعدوا العدة لإلقائه فى النار التى أشعلوها، فاستسلم إبراهيم عليه السلام لله، واتجه بقلبه إليه يدعوه بخشوع وتضرع، وهو راض بقضائه، صابر على بلائه، فسلب لله النار قوة الإحراق وجعلها عليه ظلا ظليلا لا بألم من حرها ولا من بردها، فذل القوم وخاب كيدهم وظنهم بآلهتهم، وباءوا بالذل والخسران.

قال تعالى :

﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى :

﴿ فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات].

وأسرع المضللون وزعماء الشرك يزعمون أن إبراهيم عليه السلام قد استغاث بآلهتهم فنجته من النار، حتى يسيطرون على العامة ويخدعونهم ويصرفونهم عن الإيمان بإبرهيم عليه السلام وليستروا الحق الذى ظهر للعيان.

فعجب أن هؤلاء كيف يرون إبراهيم عليه السلام فى نار متأججة قد بلغ شررها عنان السماء لم يصبه حرها بسوء، ويخرج عليهم منها بعافية وسلام ثم بعد ذلك لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، لكنه التقليد الأعمى والفساد المستحكم، والهوى الجامح الذى ملأ قلوبهم فلم ينفع معه نصح ولا معجزة رسول.

حوار مع النمروذ:

وكان النمروذ بن كنعان ملكا جبارا يعبد الكواكب، ويصنع لها الهياكل، ويقيم لها الطقوس والأعياد، فتوجه إليه إبراهيم عليه السلم- يدعوه إلى عبادة الله وحده، لعل الله يهديه ويهدى به قومه.

فما كان من النمروذ إلا أن سأله فى كبر وغرور عن ربه، من هو؟ وما حدود ملكه؟ وما حدود قدرته؟ فقال إبرهيم عليه السلام : "ربى الذى أعبده وأدعوك إليه هو الذى يحيى ويميت، وهو أمر لا يملكه غيره".

فقال النمروذ فى عزة وكبرياء كاذبة : "أنا أحيى وأميت، وأتى باثنين محكوم عليهما بالقتل، فقتل واحدا وأبقى الآخر، فقال: أنا أحيى وأميت، فأقتل من أشاء، وأبقى من أشاء، فترك له إبراهيم هذه الفرية (الكذبة)، ليأتيه بشئ لا يستطيع دفعه. ومن المعلوم أن الموت هو سلب الحياة دون هدم البنية (الجسد) بخلاف القتل. فقال له إبراهيم عليه السلام كما فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة].

فأعجزه وأبهته، وألزمه الحجة، لكنه أبى واستكبر وطغى وتجبر، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

وحكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾ [مريم].

وآمن لوط له وهو ابن أخيه كما قال تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت].

محاوراته مع عباد الكواكب وإلزامهم الحجة :

وقد كشف الله لإبراهيم عليه السلام حجب الغيب، وأطلعه على ملكوت السماوات والأرض، ليكون على يقين تام بقدرته وبديع صنعه، وأحقيته فى التفرد بالعبادة، وليأخذ مما يراه من البراهين الصادقة ما يؤيده فى دعوته.

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ [الأنعام].

وقد ذكر الله تعالى من هذه الآية طرفا من حجته على قومه من عباد الكواكب، انتزعها من الواقع المشاهد لا تترك أى شك فى أن هذه الكواكب لا تصلح لأن تكون آلهة، لأفولها وزوالها عن مواضعها، لأن من شأن الإله ألا يكون جرما(جسما) تراه الأعين فى مكان معين، ولا يكون عرضة للتغيير يظهر ثم يستتر، يعلو ثم يهبط، يبدو صغيرا ثم يكبر، يزهو ثم يذبل . إلى آخر ما هنالك من تغييرات.

إن الإله الذى يستحق أن يعبد هو الذى لا يحيط به مكان ولا زمان، ولا يتغير ولا يتبدل، ويتنزه عن مماثلة الحوادث والمخلوقات ، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط بكنه ذاته العقول والأفهام. وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه: "ولا يحيطون به علما". وكما قال سبحانه : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ . وقوله : "لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار".

قال عز وجل:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام]

ومعنى وجهت وجهى وجهت قلبى.

وقوله تعالى: ﴿ للذى فطر السموات والأرض ﴾ أى الذى بدأ خلق السموات والأرض ومافيها، وخلق الأرض وما فيه دون شريك ولا منازع، وهو الذى يدبر أمر العالم كله، لأنه دائم الوجود والأبدية، يغير ولا يتغير، لا تأخذه سنة ولا نوم. ومن حقه على عباده أن يتحنفوا إليه أى يميلون عن سواه إليه، ويخضعون لعظمته، ويعبدونه عبادة خضوع وتواضع ومسكنة.

ولقد لقِّن إبراهيم عليه السلام هذه الحجة، إذ جاراهم أولا فيما يقولون عن هذه الكواكب، فلما رأى كوكبا باديا فى ظلمات الليل الحالك السواد قال: هذا ربى، فظنوا أنه وافقهم فى معتقدهم، فلما غاب الكوكب قال: لا أحب الآفلين. أى: لا أحب أن أدين له ولأمثاله من الكواكب التى تغيب عن عالمها، لأنها لا تصلح أن تكون آلهة بأى حال، فمن ذا الذى يدبر أمر العالم أثناء غيبته ، ومن الذى غيبه.

لابد أن يكون الذى غيبه أقوى منه، ربما كان القمر هو الذى غيبه، فلما غاب أظهر لهم أن الأمر محير. وأنه لابد للمرء أن يفكر ليهتدى إلى الإله الذى يغير ولا يتغير، فلما رأى الشمس بازغة وهى أكبر معبوداتهم قال: هذا ربى،

فلما غربت، قال: يا قوم أقول لكم بصدق كلمة ليس فيها أدنى شك، إن الإله الذى ينبغى أن تتوجه إليه القلوب هو الخالق البارئ الذى احتجب بقوة ظهوره عن سائر خلقه.

وهذه المناظرة كانت بعد بعثته عليه السلام بدليل قوله تعالى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ [الأنعام].

سؤاله عليه السلام أن يريه الله كيف يحيى الموتى :

لما أتم الله على إبراهيم النعمة، وأره شيئا من ملكوت السموات والأرض وأطلعه على كثير من أسرار الكون، وقربه وأدناه، وفرغ قلبه لمحبته، والخلة أرقى من الحب، أشتاقت نفسه عليه السلام أن يحصل على مزيد من العلم ومتعة الروح ، فطلب من ربه بأدب واستحياء أن يريه حالة من حالات الموتى، وصورة من صور تركيب الكائنات الحية ليزداد قلبه سكينة ويرقى فى درجات الكمال.

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يستجيب لإبراهيم عليه السلام فأراه صورة حية من إحياء الموتى كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ

جبلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾[البقرة].

وقد ذكر هذه القصة عقب قصة العزير للدلالة على أن الله القادر على إحياء الموتى فى الدنيا. قادر على إحيائهم يوم القيامة.

وقضية الموتى والبعث من أهم قضايا الإيمان والتى ينفذ منها الشيطان إلى القلوب. وقد وجد إبرهيم عليه السلام ألطاف الله تحف (تحيط) به، ورحماته لا تنقطع عنه ، فتاقت نفسه أن يسأل الله هذا السؤال، وقد سأل موسى عليه السلام ربه سؤالا أعظم من هذا، فقال : ﴿ربى أرنى أنظر إليك﴾.

والسؤال " بكيف لا يكون جوابه إلا بأن يشهد إبراهيم عملية الإحياء وكيف تتم هذه العملية، والعناصر التى تعمل فيها، وهو أمر فوق مستوى الإدراك البشرى، إنه سر من أسرار الألوهية.

وفى قوله تعالى لإبراهيم: ﴿أولم تؤمن﴾ إثارة لمشاعر إبراهيم واستحضاراً للإيمان الذى يعقد عليه قلبه.

ولهذا كان جواب إبراهيم : ﴿بلى﴾ أى : أنا مؤمن كل الإيمان (ولكن ليطمئن قلبى) ، وتلك درجة فوق درجة الإيمان؟ إذ لا سلطان للإنسان على قلبه، وليس من شأن القلب أن يستقر على حال واحدة فى جميع الأحوال، لما يدور فى القلب من مختلف المشاعر والعواطف والنزعات، وإطمئنان القلب إطمئنانا مطلقا أمر يكاد يكون مستحيلا، لا يبلغه إلا المصطفون من عباد الله بعد ابتلاء ومجاهدة.

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ

اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.[البقرة]

فجعل الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام يجرى تجربة بنفسه ، يصنعها بيديه، ويشهد آثارها ونتائجها بعينيه، وذلك بأن يأخذ أربعة من الطير فيضمهن إليه ثم يقطعهن قطعا ويجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن، أى يناديهن يأتينه سعياً أى سراع على أقدامهن بعد أن دبت فيهن الحياة بقدرة الله العزيز الحكيم القادر الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

وقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يترقى من علم اليقين وهو العلم المتيقن المؤكد إلى العلم بالنظر والمعاينة وهو عين اليقين.

هجرته عليه السلام :

لما لم يجد إبراهيم عليه السلام من قومه فى بابل إلا عنادا وإعراضاً عن الحق الذى جاءهم به من ربه – أعد العدة للرحيل عنهم إلى بلاد أخرى لعله يجد فيها من يؤمن به ويوحد الله تعالى .

فلما حان وقت هجرته صحب معه زوجه وابنة عمه سارة بنت هاران، وهجر معه بن أخيه لوط عليه السلام ، كما قال تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت]

أى استجاب له لوط وآمن له، وقال له: إنى مهاجر معك إلى ربى وليس من أجلك أنت، فكلانا مهاجر إلى الله فار بدينه من الكفار الطغاة.

وإبراهيم عليه السلام قال أيضا كما حكى القرآن : وقال إنى ذاهب إلى

ربى سيهدين، أى مهاجر فى سبيله بقلبى وقالبى وأنه سيدلنى حقا إلى السبيل السوى، لأن من توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن اعتصم به هداه إلى الصراط المستقيم. ونزل بأرض الشام ثم مر بمصر ، ثم استقر به المقام بعد ذلك فى الشام، قال تعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء].

ومكث إبراهيم عليه السلام ومن معه ببيت المقدس إلى ما شاء الله ثم ارتحلوا إلى مصر بسبب قحط قد نزل بهذه البلاد.

وفى مصر تعرض ملكها لسارة يريدها لنفسه فعصمها الله تعالى وأصابه شلل فى يده وهو يطلب صفحها وعفوها حتى ظن أنها شيطانة فأطلقها ووهبها هاجر فأهدتها لإبراهيم فأنجب منها إسماعيل عليه السلام. ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وولدها إلى مكة ويتركها هناك ليعمر بها هذا الوادى المبارك، فامتثل إبراهيم عليه السلام أمر الله عز وجل وخرج بهما إلى هناك، حيث لا ماء ولا زرع، ثم تركهما وانصرف بعد أن ودعهما متأثراً غاية التأثر، وكلما خطى خطوة بعيدًا عنهما أحس بالحنين إليهما، فلما أشرف على الوادى، كاد ينفصل عنهما راجعا إلى الشام ودعا بدعوة حارة مخلصة كما حكى القرآن فى سورة إبراهيم.

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ

الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ [إبراهيم].

وقد استجاب الله تعالى لإبراهيم دعوته فى البلد الحرام، وجعله آمنا فى الجاهلية والإسلام.

أما فى بنيه : فقد استجاب له فى بعضهم ولم يستجب فى بعض آخر، فكان منهم فى الجاهلية حنفاء (موحدون) يعبدون الله على دين إبراهيم، وكان منهم – وهم الأكثرون– عباد أصنام، مشركون بالله.

قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة].

فليس كل ذرية إبراهيم يتابعه ويكون على دينه إلى يوم القيامة.

ويقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فلما دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق للمؤمنين وحدهم أجابه الله تعالى :
﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فهذا الرزق هو متاع قليل. ولن يحرم الكافر من هذا المتاع القليل مدى حياته الدنيا ثم يصلى فى الآخرة نارا خالدا فيها.

دعوته لإسماعيل:

واتجه إبراهيم عليه السلام إلى ولده إسماعيل بعد أن أشرف على فراقه فدعا له ولذريته بدعوة جامعة لخيرى الدنيا والآخرة.

قال كما فى القرآن : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم].

أى اجعل قلوبا من الناس تميل إليهم وتقيم معهم إذ لا غنى لهم عن بنى جنسهم، ولا يستطيعون أن يعيشوا بمعزل عنهم بواد قفر لا زرع فيه ولا ماء، وطلب من ربه أن يرزقهم من الثمرات حيث كانت، فهو الرزاق ذو القوة المتين، ثم ختم دعاءه بالثناء على ربه، واتبع ذلك بالدعاء لنفسه ولوالديه وللمؤمنين بالمغفرة يوم يقوم الحساب.

هاجر وإسماعيل :

لما ودع إبراهيم عليه السلام هاجر وهم بتركها عند المسجد الحرام تبعته فقالت يا إبرهيم أين تذهب وتتركنا؟، وكررت عليه هذا السؤال تريد أن تستوثق (تتأكد) من الأمر وهى تعلم أنه لا يظلمها، ولا يفرط فيها ولا فى ابنه ولكنها تستفسر عن مصيرها ومصير ابنها فلعلها تجد عنده جواباً مقنعاً راضياً مطمئناً.

فلما لم يلتفت إليها، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت : إذ لا يضيعنا.

قصة إسماعيل ـ عليه السلام ـ

رجعت هاجر عليها السلام إلى مكانها بعد أن تركها إبرهيم عليه السلام فلما نفذ ما معها من ماء عطش ابنها، فأخذت تبحث له عن ماء هنا وهناك فلم تجد، فصعدت على الصفا ثم صعدت على المروة، وأخذت تحدق ببصرها نحو الطريق المؤدية إلى مكة لعلها تبصر إنسانا يسعفها بجرعة ماء لرضيعها، وكررت ذلك سبع مرات، فلم تجد شيئا.

روى البخارى رحمه الله تعالى عن بن عباس رضى الله عنهما: قال النبى ﷺ فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت : صه (أنصت) تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه- أو قال بجناحه- حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه (تحركه بشدة هكذا وهكذا). وتقول بيدها(أى تفعل) هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور بعد ما تغرف".

قال ابن عباس قال النبى ﷺ :"يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم. أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينًا(١) ، فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة، فإن هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله. وجاءت رفقة من قبيلة جرهم لما رأوا الطير يحط على موضع الماء فعرفوا أن فى هذا المكان ماء، وجرهم قبيلة عربية، فطلبوا منها أن يعيشو بجوارها لينتفعوا بهذ الماء فأذنت لهم واستأنست بهم ، وترعرع إسماعيل فيهم، وتزوج منهم وأنجب ذرية كثيرة.

وكانت سكنى هاجر وإسماعيل بأمر من الله تعالى ولم تكن بسبب ماذكر

---

(١) عينا معينا: أى لسقى الناس منها فى مكة كلها وفى غيرها من القرى والمدن.

المؤرخون نقلا عن الإسرائيليات أن ذلك كان بسبب غيرة سارة عليها السلام وهى التقية الورعة المتخلقة بأخلاق إبراهيم عليه السلام.

وكان مولد إسماعيل عندما كان سن إبراهيم ست وثمانون سنة.

الذبيح :

كبر إسماعيل عليه السلم وشب وصار قادرا على العمل، يمشى مع أبيه ويشاركه متاعب الحياة، ويشاركه آماله وأحلامه، فتعلق قلبه به، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يمحض قلبه (يفرغه) لحبه عما سوه ، فأراه فى المنام أن يذبح ولده، ورؤيا الأنبياء حق وصدق، فأتى إلى ولده إسماعيل فأخبره بما رأى، ليعرف رأيه ويختبر حلمه وصبره، وليشاركه فى طاعة الله، ويهيئ نفسه لاستقبال هذه التضحية، بصدر رحب، (واسع) وقلب مطمئن، فوجده يسرع إلى امتثال أمر الله فى سرعة فائقة، ويحضه على تنفيذ ما رأى دون أن يخشى عليه الجزع والهلع، ودون أن تأخذه به رأفة تجعله يعدل عن تنفيذ ما أمر أو يبطئ فيه، ويخبره أنه سيكون من الصابرين الذين صبروا على البلاء (الاختبار) مع شدته ابتغاء وجه الله تعالى، وطلباً لمرضاته.

وقد وصف الله تعالى إسماعيل عليه السلام بالحلم فقال: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حليمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات]

بينما وصف إسحق بالعلم فقال: ﴿ قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم ﴾.

والعلم من أجل (أعظم) النعم والحلم كذلك إذ لا خير فى علم إلا بحلم. وكل منهما كان عالما وكان حليما إلى أن أبرز صفة من صفات إسحاق هو العلم، وأبرز صفة من صفات إسماعيل هو الحلم.

وسر إبرهيم عليه السلام بمقالة ولده، وحسن بلائه وسرعته فى الاستجابة

لأمر الله تعالى، فأخذ السكين وتله للجبين، أى جعل وجهه تجاه الأرض حتى لا يرى عينيه فتأخذه به شفقة تثنيه عن تنفيذ أمر الله تعالى، وأجرى السكين على عنقه فلم تؤثر فيه، وحالت (منعت) قدرة الله بينها وبين القطع.

وضجت الملائكة وأدرك الله إبرهيم برحمته، وفدى ولده إسماعيل بكبش عظيم فذبحه تحقيقا للرؤية وتلبية للأمر، وجعل هذا الفداء سنة متبعة فى شريعة رسولنا محمد ﷺ .

وقد ذكر القرآن هذه القصة فقال :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات].

أخلاق و صفات إسماعيل عليه السلام :

قلنا أن الله تعالى وصف إسماعيل بالحلم ، والحلم هو رزانة فى العقل، ورجاحة فى الرأى (قوة) ، وغزارة فى العلم، مع سعة فى الصدر وهو ضد الجهل بكافة صوره كالسنة (خفة العقل والطيش)، وفساد الرأى، وعدم إدراك العواقب، والغضب بغير حق، والتطاول على الناس.

فإسماعيل عليه السلام قد أوتى كمال العقل والعلم والخلق وقد وصف الله

تعالى إبراهيم عليه السلام بالحلم كما وصف إسماعيل فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود].

فإسماعيل عليه السلام كان صورة أبيه فى كمال عقله وسلامة إدراكه، وصبره وعلمه.

ما أروع أن تلتقى عاطفة الأبوة مع عاطفة النبوة على طاعة الله ومن أشد سرور الوالد بولده المطيع الصابر المستسلم لأمر لله تعالى الذى أكد صبره مستعيناً بالله تعالى دون شكوى أو جزع.

وما أروع تضحية إبراهيم عليه السلام حيث نوى وشرع كما أمر الله سبحانه فى تقديم ولده قربانا لله وما أشد بلاءه بعد أن ارتبط بولده الشاب الذى رزق به على الكبر بأن يذبحه بنفسه ولا يقتله غيره،

وبعد أن بلغ مبلغ الشباب والسعى والقدرة على العمل ومعاونة أبيه فى كل شئ فهو قرة عينه، فلما خلا قلبه من الاشتغال به ولم يعد فى قلبه إلا محبة الله وخلته أعفاه من ذبحه وفداه بذبح عظيم.

الدليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق :

زعم أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، لينالوا شرف هذا الذكر العطر، وليغيظوا رسول الله وأصحابه وزوروا فى التوراة وذكروا اسم اسحق على أنه الذبيح مع أن فى التوراة نصا يخالف زعمهم ويكذبهم ففيها: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده. أو بكره.

ولا يشك أهل الكتاب ولا المسلمون أن إسماعيل هو بكره (أول مولود له) ووحيده قبل مولد إسحاق.

ولكن اليهود جعلوا على التحريف والتبديل حسب أهوائهم.

١- إن الله عز وجل قد بشر سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فكيف يأمر الله إبراهيم بذبح إسحاق وقد أخبره أن سيكبر ويتزوج ويولد له ولد إسمه يعقوب.

٢- لما ذكر الله قصة الذبح فى سورة الصافات اتبع ذلك بقوله : ﴿ وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين ﴾ فدل هذا بوضوح على أن الذى تحدث عنه من قبل هو إسماعيل.

٣- ولقد لقب الله الذبيح بالحلم فصار علما عليه ، ولقب إسحاق بالعلم فكيف يكون الذبيح إسحاق؟

٤- وصف الله إسماعيل بالصبر وصدق الوعد ، ولم يصف إسحاق فى كتابه بذلك فقال :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم].

وقال : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

وهذا يؤكد أنه كان هو الذبيح لأنه صدق أباه فيما وعده به، وصبر واستسلم لله تعالى ، واسلم نفسه له ليذبحه.

ويذكر عن النبى ﷺ قوله :[أنا ابن الذبيحين].

حياة إسماعيل عليه السلام :

ذكر علماء الأخبار والسير أن إسماعيل عليه السلام أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشا فأنسها وركبها. قال رسول الله ﷺ :" اتخذوا الخيل

واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم اسماعيل" رواه سعيد بن يحيى الأموى عن عبد الله بن عمر".

وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل عليه السلام.

وأنه عليه السلام لما شب تزوج امرأة من العماليق، وأن أباه أمره بفراقها لما شكت ضيق الحال، ثم تزوج غيرها فأمره أبوه أن يستمر معها لما زاره ووجده غائبا وسألها عن حالها فأثنت على الله تعالى وشكرت لزوجها وذكرت سعة عيشها. فولدت له اثنى عشر ولدا ذكرا وهم : نابت، وقيذر، وإزيل، وميشى، ومسمع، وماش، ودوصا، وأدر، ويطور، ونيش، وطيما، وقبذما.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى تلك الناحية وماوالاها، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه : نابت، وقيذار.

بناء البيت الحرام :

كان البيت الحرام ربوة حمراء تنزل السيول أحيانا عن يمينها وشمالها، ولما كبر إسماعيل عليه السلام أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت الحرام بعد أن عرفه مكانه، ليكون محجة للناس وأمنا، ومقرا للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأمره أن يصحب معه ولده إسماعيل فقاما ببناء هذا البيت بالحجارة، فكان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يدعوان الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يريهما مناسك الحج والعمرة وأن يبعث فى أهل مكة ومن حولها رسولا منهم يتلو عليهم آياته، ويعلمهم دينهم ويطهرهم من رجس (نجاسة) الشرك والضلال.

يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ [البقرة].

ثم يقول عز وجل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة].

فاستجاب الله لإبراهيم وإسماعيل فبعث النبى العربى محمد بن عبد الله ﷺ وفى هذا يقول النبى الكريم ﷺ : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى.

والكتاب هو القرآن ، والحكمة هى السنة، وبهما يتزكى المؤمن ويتطهر، ولما أتم إبراهيم بناء البيت أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج، فكان الحج فريضة فى شريعته كما هو فريضة فى شريعتنا، وأراه الله مناسكه وساق الناس إلى بيته من كل مكان قريب أو بعيد، فجاؤوه رجالا (ماشين) وركبانا على كل ضامر (جمل خفيف البطن سريع السير) وجعل الله فى حج البيت منافع كثيرة للناس، من أعظمها غفران الذنوب، والتقاء المسلمين للتشاور فيما بينهم من أمور دينهم ودنياهم، وفى ذلك يقول عز وجل:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ [الحج].

وقد ذكر بعض العلماء أن الملائكة هى أول من بنى البيت الحرام وقيل إن آدم عليه السلام هو أول من بناها وأنها تهدمت بفعل الطوفان وأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنما رفعا قواعد كانت موجودة.

وفاة إسماعيل عليه السلام:

ولما حضرت إسماعيل عليه السلام الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه (العيص) ابن إسحاق ويسمى عيصو، فولدت له الروم، ويقال لهم بنو الأصفر لصفرة كانت فى العيص ابن إسحاق، وولدت له اليونان . ومن ولد العيص الأسبان كما ذكره العلامة ابن جرير الطبرى وابن كثير رحمهما الله تعالى .

ودفن نبى الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة.

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة، فأوحى الله إليه: إنى سأفتح لك بابا إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه. يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة.

لوط. عليه السلام.

هاجر لوط بن هاران بن تارح مع عمه إبراهيم - عليهما السلام - إلى مصر ثم إلى الشام فاجتمع لديهما مال كثير من الأنعام ضاق به الوادى ، فأستأذن لوط عليه السلام عمه الخليل فى الرحيل إلى أرض أخرى فأذن له، فاستقر به المقام فى قرية كبيرة تسمى سدوم.

فوجد فيها قوما هم أفجر خلق الله وأخبثهم لم تعرف البشرية من أول عهدها مثيلا لهم، فقد كانوا يقطعون الطريق على المارة، ويسلبون أموالهم ويقتلونهم ويأتون فى ناديهم المنكر حيث كان الرجال يضاجعون الرجال ويستمتعون بهم بدلا من النساء جهاراً نهاراً أمام بعض، دون خوف أو خجل، وهذا غاية الحقارة والاسفاف فى عالم الانسان، يعف عنها كثير من الحيوانات، حيث يأبى الكثير منها أن يتصل بأنثاه على مرأى من بنى جنسه كما كان يفعل هذا الصنف الخسيس من البشر.

وكانت سنة الله تعالى أن لا يعذب قوما بذنوبهم حتى يبعث فيهم رسولا يدعوهم إلى عبادته وحده، والدخول فى طاعته، ويطهرهم بما يأتيه من العلم والحكمة. بعث فيهم لوطا عليه السلام فدعاهم إلى توحيد الله تعالى - وحذرهم عاقبة أفعالهم الخبيثة التى يأتونها، والتى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين فأبوا عليه، وأعرضوا عنه، وازدادوا كفرا على كفرهم، وطغيانا على طغيانهم، وتواصوا بإخراج لوط من قريتهم.

قال تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل].

أرأيت كيف كان جواب قومه أن يخرجوا الأطهار من قريتهم بسبب طهرهم وكيف رضوا لأنفسهم حياة الذل والعار، والخبث والنجاسة فما أفجرهم وأخبثهم إذ يتبرأون من الطهر والأطهار.

ولقد تلطف بهم لوط عليه السلام حقبة من الزمان ، ودعاهم إلي الله على بصيرة بأسلوب حكيم مدعم بالبراهين ، والحجج الساطعة ، شأنه فى ذلك شأن كل إخوانه من المرسلين، ولكن القوم أصروا على كفرهم وفسادهم وصمموا على نفيه من بلدهم، فدعا ربه أن ينصره عليهم.

يقول تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) ﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) ﴾ أى من الكارهين المبغضين المنكرين.

وكان لقاء الملائكة بلوط لقاءً مباغتا كما كان لقاؤهم لإبراهيم عليهما السلام، وكان أكبر همه بعد لقاءهم أن يحميهم من عدوان قومه وكان خوفه أن يفضحوه فيهم.

فقد جاءه الملائكة فى صورة بشر ، فيهم الشباب والنضارة والجمال، وهذا ما يغرى قومه بهم، وكان عليه السلام يتوقع ماسيكون من قومه عندما يرونهم

وإلى هذا أشار قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) ﴾ [هود].

وقوله تعالى : ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ : أى ساءه وآلمه نزولهم عنده ، واحتماؤهم به. وضاق بهم ذرعا: أي أحس العجز عن حمايتهم لأنه سيواجه قومه وحده، والذرع من الذراع.

وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ : أى يوم قاس، شديد الوقع على النفس، لما سيطلع عليه فيه من أحداث هائلة، توقعه فى هذا المأزق، وتوقعه مع قومه فى صراع غير متكافئ.

وكان ما توقعه لوط عليه السلام فقد أخبرت زوجه القوم بأضياف لوط فجاءوا يسرعون إليه طالبين منه تمكينهم من ضيوفه، فوبخهم وزجرهم، وذكرهم بالله الذى بيده نواصيهم، وحذرهم من إحداث فضيحة وعار، وردهم إلى الفطرة التى خلقهم الله عليها، ولكنهم أساءوا إليه وأغلظوا له السب، وأعلنوا إصرارهم على مطلبهم المشين، وأنهم لا حاجة لهم فى النساء، فعندئذ قال لوط فى نفسه: لو كان عندى رجال مؤمنون ينصروننى أو آوى إلى قوم لديهم نخوة وغيرة على الحرمات يحموننى.

يقول تعالى :

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود].

لقد بلغت السفاهة بالقوم إلى الحد القذر، إذ جاءوه جماعة يقتحمون عليه أسوار بيته بلا خجل ولا حياء ليفعلوا الفاحشة مجتمعين، وعندما عرض عليهم بنات القرية ليتزوجوهن ويستمتعوا بهن حلالا طيبا، يقولون له فى وقاحة "مالنا فى بناتك من حق، إننا لا نريد إلا الذكران، فانقلبت أوضاع الأشياء فى أعينهم، وتغيرت معالمها".

ولكن الله تعالى لا يتخلى عن رسله وأنبياءه وقت الشدة، ولا يتركهم للضالين المجرمين، فأدركته عناية الله، وأنطق رسله بالبشرى التى كان ينتظرها، وبالهلاك والدمار الذى كان ينتظرهم.

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود].

فأمر الملائكة لوطا أن يخرج بأهله فى بقية من الليل قبل أن يطلع الصبح، وألا يلتفت هو ومن معه إلي الوراء حيث القرية التى تركوها وراء ظهورهم.

وفى النهى عن الالتفات إلى تلك القرية إشارة إلى أنها دار إثم وفسق، ينبغى أن يقطع المؤمن كل مشاعره نحوها، فلا يتبعها بصره أو يلقى عليها نظرة وداع ، وهكذا يكون شأن المؤمن مع كل منكر، وكذلك أمر النبى ﷺ أصحابه عندما مروا بالحِجْر ديار ثمود أن يسرعوا السير وأن يصرفوا حواسهم عنها ولا يلتفتوا إلى هذه المواطن(١).

ولما جاء الصبح الموعود، وقع أمر الله وقضاؤه، فأمر جبريل عليه السلام فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من نار جهنم معلمة، كل حجر يقع

---

(١) انظر إلى حالنا الآن ونحن نسمى باريس مدينة النور .

على صاحبه لا يخطئه ولا يصيب غيره، فذهبت معالم القرية بأكملها، وصار أهلها حديثًا تتناقله الأجيال، وعلامة للذين يخافون العذاب الأليم، ولتكون هذه القصة عبرة لمشركى مكة ومن حولها خصوصا وللناس عموما. وموضع قرى قوم لوط تحولت إلى البحر الميت بالأردن .

عوائد العرب فى الجاهلية

للعرب عوائد كانوا يرونها فضلا، فمنها ماكان سيئا ومنها ما كان حسنا. ومن هذه العوائد السيئة والبدع المستقبحة ما أشار إليه قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ [المائدة].

قال أهل اللغة :

البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوها وامتنعوا من ذكاتها (ذبحها) ولا تمنع من ماء ولا مرعى.

وأما الوصيلة ففى الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم.

وأما الحام، فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

ومنها ماذكره الله تعالى فى قوله عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ [المائدة].

فالخمر ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمرا، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان واحداها نُصُب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرنى ربى وعلى بعضها نهانى ربى، فإذا أراد الرجل سفرا أو أمرا يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهى لم يمض. ومن أوابدهم وأد البنات أى دفنهم أحياء. كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم وجهه وهو قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) ﴾[النحل].

وقال تعالى :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾ [الإسراء]. فكانوا يقتلونهم خوف العار أو خوف الفقر.

وبمكة جبل يقال له : أبو ولامة كانت قريش تئد فيه البنات. وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشترى البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل.

وفاخر الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بنى أمية فقال: أنا ابن محيى الموتى، فانكر الرجل ذلك، فقال : إن الله تعالى يقول:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) ﴾ [المائدة]

الرفـــادة

وأما الرفادة فى الحج : فكانت خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى، فيصنع به طعاما للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصيا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم.

وقيل أول من أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطمومة (مردومة) واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليها الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى وسبعة أسياف وخمسة دروع سابغات، فضرب الأسياف على باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الأخر فى الكعبة.

داء العجب والغرور:

وأعلم أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمى وابن سماك الأسدى الذين ضرب بهم المثل. فأما سعيد بن زرارة فقيل : إنه مرت به امرأة فقالت له : يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا وكذا، فقال لها: يا هنتاه مثلى يكون من عباد الله؟

وأما عبد الله بن زياد التميمى، فقيل : إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز؟ فنودى من نواحى المسجد كثر الله فينا مثلك ، فقال : لقد كلفتم الله شططاً.

وأما ابن سماك فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد فقال: والله لأن لم يرد راحلتى على لا صليت له أبدا. فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان

الشجر ، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل. فقال: إنما كانت يمينى قصدا . فانظر إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثا مستبشعا ومثلا بين العالمين مستشنعا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحجاج ينتقم :

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفي إنه قيل له: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرنى إناس بلغنى الأمل فيهم، وأعاننى على الانتقام منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم، فقيل له: من هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة.

أديان العرب فى الجاهلية

كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهودية فى بنى كنانة وبنى الحرث بن كعب وكندة.

وكانت المجوسية فى بنى تميم منهم زرارة بن عدى وابنه على وكان تزوج ابنته ثم ندم. ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيا .

وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنما من حيس فعبدوه دهرا طويلا، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه.

عمرو بن لحى:

وكان أول من غير الحنيفية عمرو بن لحى أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها، قالوا هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا . فقال: أعطونى منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

كيف عبدوا الحجارة :

كان لايظعن (يسافر) من مكة ظاعن حتى ضاقت عليهم وتفرقوا فى البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم فحينما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوا من الحجارة، ثم خلفت خلوف ونسوا ماكانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال.

وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر فى جوف الكعبة يقال له هبل. واتخذوا اساف ونائلة على موضع زمزم. وكان اساف ونائلة رجلا وامرأة ، فوقع اساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرا تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله. وأنهمك العرب فى عبادة الأصنام.

وكان لقريش ونبى كنانة العزى، وكان مجابها بنو شيبة.

وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بنو مغيث من ثقيف.

وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم.

وأما يغوث ويعوق ونسرا فقيل إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتقياء عباد فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنا شديدا، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروه،فكرهوا ذلك، فقال: اجعلوه فى مؤخر المسجد، ففعلوا وصوروه من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصوروهم هناك ، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شئ غير الله، فقالوا له : من نعبد ؟ قال : آلهتكم المصورة فى مصلاكم فعبدوها إلى أن

بعث الله نوحا عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها ، فقالوا كما أخبر الله:

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح].

ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلاها التراب زمانا طويلا، فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها

وذكر الواحدى فى الوسيط : أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسول الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها، وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم.

وقال الواقدى : كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة ويغوث وصورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر.

بدع وخرافات جاهلية :

الرتم شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنا منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال: قد خانتنى امرأتى ، وإن وجده على حالته قال: لم تخنى.

الرئيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفقئة :

كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا قلع عين الفحل . يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقا عينه الأخرى.

العرواء:

يصيب الإبل شبه الجرب، كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرى داء العر.

ضرب الثور عن البقر:

كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب.

الهامة :

كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو البومة، فلا يزال يصيح على قبره اسقونى إلى أن يؤخذ بثأره.

مذاهب العرب فى الجاهلية :

وكان للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفس وتنازع فى كيفياتها، فمنهم من زعم أن النفس هى الدم وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه.

وقالوا إن الميت لايوجد فيه الدم وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهبت رطوبته ، وحل به اليبس والبرودة.

وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولايزال متصورا فى صدره الطائر يصرخ على قبره مستوحشا له وفى ذلك يقول بعضهم:

سلط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام[1]

ثم جاء الإسلام ، والعرب ترى صحة أمر الهام، حتى قال النبى ﷺ لاعدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام" وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرا ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ، ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلي، ويزعمون أن الهامة لاتزال عند ولد الميت لتعلم مايكون من خبره فتخبر الميت.

الصفر:

زعموا أن الإنسان إذا جاع عرض على شرسوفه الصفر وهى حية تكون فى البطن.

تثنية الضربة:

زعموا أن الحية تموت فى أول ضربة، فإذا تثنيت عاشت.

الغيلان والتغول للعرب:

يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات فى أنواع الصور فيخاطبونهم وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج منفردا لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار فى أوقات الخلوات وفى الليل.

وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه رآه فى سفره إلى الشام فضربه بالسيف.

وقال الجاحظ : الغول كل شئ يتعرض للسيارة ويتلون فى ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف، وقالوا إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى.

(١) صدىً طائر يزعمون أنه يخرج من رأس الميت

القطرب :

القطرب فى قولهم ، فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الإسم فيظهر فى أكناف اليمن وصعيد مصر فى أعاليه، وربما يلحق الإنسان فينكحه، فيدود دبره فيموت. وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحى أمنكوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشيا عليه، ومنهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه. وقد ذكر الغيلان والقطرب الأبشيهى والمسعودى فى مروج الذهب والذى يظهر أن الغيلان والقطرب لها حقيقة لأن النبى ﷺ قد حذر من أن يسافر الرجل وحده بل ونهى أن يسافر رجلان وحدهما وقال ﷺ الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب".

وقال ﷺ لو يعلم المسافر وحده مافى الوحدة ما سافر رجل وحده.

الهواتف :

كثرت الهواتف في العرب وكان أكثرها أيام ميلاد النبى ﷺ وأن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى.

حكاية عن الهواتف :

من عجيب ما يحكى عن الهواتف ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال:

خرجنا حجاجا، فصاحبنا رجل وجعل يقول فى طريقه:

ليت شعرى هل بغت على، فلما انصرفنا من مكة قالها فى بعض الطريق، فأجابه صوت فى الظلام: نعم نعم وناكها حجية. وهو رجل أحمر ضخم فى قفاه كية.

فسكت الرجل ، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال.

دخل جيرانى يسلمون على فإذا فيهم رجل أحمر ضخم فى قفاه كية، فقلت لأهلى من هذا؟ قالت رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيرا، فسألتها عن اسمه، فقالت حجية، فقلت لها الحقى بأهلك.

وقوله : الحقى بأهلك كناية عن الطلاق.

والخلاصة من هذه القصة أن جنيًا أخبر هذا الرجل فى شعره أن امرأته خانته مع رجل وسمى له هذا الرجل ووصفة بعلامة ظاهرة وهى الكية فى قفاه.

بكاء المقتول:

وأما البكاء على المقتول ، فكانت النساء لايبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

رحى السن:

كانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه فى عين شمس بسبابته وإبهامه، وقال: ابدلينى بأحسن منها، فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج. ولا شك أن هذا العمل والطلب من الشمس شرك أكبر(١).

خضاب النحر:

كانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره يوم الصيد علامة.

---

(١) مازال بعض الجهلاء حتى الآن يقولون ياشمس يا شموسة خذى سنة الجاموسة وأدينى سنة النفوسة ، ومازال بعض الناس يرمى سنة المخلوعة فى عين الشمس ، ومن أعمال الجاهلية إمساك الخشب خشبة الحسد وهى عادة فرعونية شركية حيث كانوا يتخذون إلها من خشب يزعمون أنه يقيهم من شر الحسد .

جذ النوا صى:

كانوا إذا اسروا رجلا ومنوا عليه ، وأطلقوه جزوا ناصيته.

الإلتفات:

كانوا يزعمون أن من خرج فى سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له وكانوا يقولون : من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر. وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن.

ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبها .

ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية ، فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل فى فروج الأبكار فتغتطهن.

ويزعمون أن الرجل إذا ضل ، فقلب ثيابه اهتدى.

وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن.

وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان.

نكاح المقت:

وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورثت نكاحها له فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال.

الكهانة والقيافة

والزجر وغيرها

الكهانة:

أما الكهانة فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام ، فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة، وآياتها وللكهنة أخبار.

فمنهم : سطيح ، وشق وغيرهما.

وكان الكاهن له رعيًا من الجن يخبره ببعض المغيبات مما يسمعه من السماء فيخلطون معه الأكاذيب.

القيافة :

وهى على ضربين (نوعين) قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرا فيلحقه بأحدهم.

وحكى : عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبا على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد. قال ولد التاجر فوقع فى نفسى من ذلك شئ فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة فقالت:

يا ولدى إن أباك كان شيخا كبيرا ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك. ولولا أن هذا شئ ستعلمه غدا فى الدار الآخرة لما أعلمتك به فى الدنيا.

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختص به قوم

من العرب أرضيهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به.

ومن العجيب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن.

ويذكر أن فى قطبة وثغر البرلس أقواما بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبى ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صُم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة، وقوله ههنا انتهت الأقدام. هذا ومنهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعنى فى علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى.

وقيل القيافة لبنى مدلج فى أحياء مضر. واختلف رجلان عن القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هى ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو هذا؟ قال: نعم؟ فوجداه خنثى فأصابا جميعا.

الخط فى الرمل:

ومنهم من كان يخط الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعده.

وقال رجل شردت لى إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر بنته أن تخط لي في الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدرى قيامها لأى شئ؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحييت ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعى غازيين ، فمرا بامرأة وهى تخط للناس فى الأرض فضحك منها مالك هزوا وقال: ما هذا؟ فقالت:

أما والله لاتخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت.

الزجر والعرافة:

فأحسنه ما روى إن كسرى إبرويز بعث إلى النبى ﷺ حين بعث زاجرا ومصدرا، فقال للزاجر انظر ماترى فى طريقك وعبره، وقال للمصور إئتنى بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك.

وبعث صاحب الروم إلى النبى ﷺ رسولا وقال له : انظر إليه ومل إلى جانبه وانظر إلى مابين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبى ﷺ علي نشز عال واضعا قدميه فى الماء وعن يمينه على ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال له : تحول فانظر ما أمرت به ، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال ليعلون أمره وليمكنن ما تحت قدمى ، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة.

وقال المدائنى : وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان، حين أتاها فخرج هاربا ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: أواه ما أظن أنى أرجع إلى الفسطاط، فمات ولم يرجع.

وكانت نائلة بنت عمار الكلبى تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة : اذهبى فانظرى إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكنى رأيت تحت سرتها خالا ليوضعن معه رأس زوجها فى حجرها فطلقها معاوية، وتزوجها بعده رجلان حبيب بن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه فى حجرها.

وبينما مروان بن محمد[1] جالس فى إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عراف أو قياف، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندى واضح البرهان ، فما مضى غير شهرين حتى هلك مروان.

وروى المدائنى أن عليا رضى الله عنه بعث معقلا، فى ثلاثة ليقيم بالرقة وذلك فى وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشا فذهب به، فقال شداد بن أبى ربيعة الخثعمى الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

سيف بن ذى يزن يستنجد بكسرى:

وحكى عن سيف بن ذى يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش[2] ، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة فى مائة ألف من الحبشة، وكان فى عسكر ذى يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره اصبر لتنظر ما يكون من أمره، فقال فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: اصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شئ من ذلك إلا على حمار كأنه استصغرهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

---

(١) مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية.

(٢) قيل إن هذا الجيش كان مكونا من ٦٠٠ رجل من أرباب السجون.

هل ينطلق المحبوس:

وحكى : أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطئ فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق، قال : نعم ويخلع عليه. قال: فقلت له بأى شئ عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتنى التفت يمينا وشمالا فوجدت رجلا على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفريغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة.

قال وكان الأمر كذلك.

الفأل:

روى أن النبى ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. وروي أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له : يابشار وياسالم فقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه : ابشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار.

وقال الأصمعى سألت ابن عون عن الفأل فقال : هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع ياواجد وما أشبه ذلك.

الطيـــر:

كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة.. وذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : من عرض له من هذه الطيرة شئ، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وعنه ﷺ أنه قال:" ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له.".

وعن ابن عباس رضى الله عنهما من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : من أتى كاهنا فصدقه بما يقول أو أتى امرأته حائضا فى دبرها فقد برىء مما نزل على محمد ﷺ .

وكانت العرب تنظر بأشياء كثيرة منها العطاس، والغراب، وبعضهم كان يتطير من الإبل لأنها تحمل أثقال من ارتحل.

ويحكى عن إبراهيم بن المهدى قال:

أرسل إلى محمد بن زبيدة (محمد الأمين بن هارون الرشيد) فى ليلة من ليالى الصيف مقمرة يقول: ياعم "إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا" فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان ابن أبى جعفر وجاريته نعيم فقال لها: غنينا شيئا فقد سررت بعمومتى فغنت وهى تقول:

همو قتلوه كى يكونوا مكانه كما فعلت يوما بكسرى مرازبه

بنى هاشم كيف التواصل بيننا وجند أخيه سيفه ونجائبه(١)

قال: فغضب وتطير وقال لها ما قصتك ؟ ويحك انتبهى وغنى ما يسرنى فغنت:

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأكثر حزما منك مضرج بالدم(٢)

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء فى هذه الليلة؟ غنى غيره فغنت:

ما زال يعدو عليهم ريب الدهر حتى تفانوا وريب الدهر عداء

تبكى فراقهم عينى فأرقها إن التفرق للمشتاق بكاء

قال : فانتهرها وقال لها قومى إلى لعنة الله فقالت:

(١ النجائب: الكريم من الإنسان والحيوان.

(٢) تشير إلى معارك الباسوس فى ربيعة التى استمرت ٤٠ عاما بين أبناء العمومة بسبب قتل ناقة.

والله يا مولاى لم يجر على لسانى غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه. ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر.

قال إبراهيم بن المهدى : فالتفت إلى وقال: ياعمى أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفا يقول: قضى الأمر الذى فيه تستفتيان. فقال لى اسمعت ما سمعت ياعم؟ فقلت : ما سمعت شيئا وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: ياعم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدى به.

وحكى أن نور الدين محمود وهمام الدين ركبا فى يوم عيد وخرجا للتفرج فتجادلا فى الكلام ثم قال محمود: يا من ورى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم ؟

فقام همام الدين : قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر؟ فإن العام كثير قال فأجرى الله على منطقهما ماكان مقدرا فى الأزل فمات أحدهم قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

وحكى أيضا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذى الليالى علمنا أن ستطوينا فشعشعينا بماء المزن واسقينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

الفراســة

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾ [الحجر].

وقال رسول الله ﷺ "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله".

وقال على رضى الله عنه : ما اضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه.

وقيل : أشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على علىّ رضى الله عنه بشئ فلم يعمل به، ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلا فقال أحدهما: أنه نجار وقال الآخر: أنه حداد، فسألاه عن صنعته فقال: كنت حدادا وأنا الآن نجار.

وكان الحسن بن السقاء من موالى بنى سليم ولم يكن فى الأرض أحرز منه ، كان ينظر إلى السفينة فيحرز مافيها فلا يخطئ، وكان حرزه للمكيل والموزون والمعدود سواء.

أقوال أهل الفراسة :

قالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشئ : ما عند الله خير وأبقى فاعلم أن بجواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قوما يخرجون من عند قاض وهم يقولون: ما شهدنا إلا بما علمنا، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ماتقدمت عليه؟

فقال : الصلاح خير من كل شئ ؟ فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنسانا يمشى ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يُحْدِث. وإذا رأيت فقيرا يعدو ويهرول

فاعلم أنه فى حاجة غنى، وإذا رأيت رجلا خارجا من عند الوالى وهو يقول: يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع.

ويقال عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله، وعرضة يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذ وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

الرؤيا:

الرؤيا الصالحة جزء من ستين جزءً من النبوة، وكان النبى ﷺ أول ما بُدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجئ على حالها لاتزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا فى صورة مثل ضرب المثل.

فمن ذلك ما حكى : أن النبى ﷺ رأى فى الجنة غرفا فقال: لمن هذه؟ فقيل لأبى جهل بن هشام فقال: ما لأبى جهل والجنة والله لا يدخلها أبدا.

قال: فأتاه عكرمة ولده مسلما، فتأولها به.

وكذلك تأول فى قتل الحسين رضى الله عنه لما رأى أن كلبا أبقع[1] يلغ فى دمه، وكان ذلك بعد رؤياه بخمسين عاما.

وما رأته أم الشافعى رضى الله عنها أن المشترى خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق فى كل بلد قطعة.

---

(١) فيه بياض وسواد.

نسب النبي ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة) بن هاشم (عمر) بن عبد مناف (المغيرة) بن قصى (زيد) بن كلاب بن قرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (عامر) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

وإلى هنا قد اتفق المؤرخون وصحت الأحاديث.

ثم يكمل ابن هشام النسب:

بن أد (أدد) بن مقدم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل من نارح (آزر) بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عبير بن شامخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن طك بن ضد شلخ بن أخنوح بن يرد بن مهليل بن قينن بن يانش بن شيث بن آدم ﷺ.

وصاية النبى ﷺ بأهل مصر (١)

قال ابن هشام : حدثنا عبد الله بن وهب، عن عبد الله بن لهيعة ، عن عمر مولى عفرة أن رسول الله ﷺ قال: "الله الله فى أهل الذمة أهل المدرة السوداء السحم الجعاد، فإن لهم نسبا وصهراً" . أ.هـ.

نسبهم هاجر أم إسماعيل، وصهرهم مارية القبطية (المصرية).

وروى ابن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما".

قال ابن هشام: فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان ، وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل، ويقول: إسماعيل أبو العرب كلها.

(١) سيرة ابن هشام ص ١٨ ومابعدها ج١ ط دار الفكر.

قال ابن إسحاق: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وثمود وجديس ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وطسم وعملاق وأميم بنو لاوذ بن سام بن نوح، عرب كلهم فولد نابت بن إسماعيل يشجب بن نابت، فولد يشجب يعرب بن يشجب. فولد يعرب تيرح بن يعرب، فولد تيرح ناحور بن تيرح فولد ناحور مقدم ابن ناحور، فولد مقدم أدد بن مقدم، فولد أدد عدنان.

قبائل العرب:

من عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فولد عدنان رجلين معد بن عدنان ، وعك بن عدنان.

فصارت عك هى دار اليمن، فقد تزوج عك فى الأشعريين، والأشعريون هم بنوا شر بن نبت بن أدد بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن جهلان بن سب بن يشجب بن معرب بن قطحان.

غسان :

غسان ماء بسد مأرب باليمن، كان شربًا لولد مازين بن الأسد بن الغوث، فسموا به، والذين شربوا منه قبائل من ولد مازن ابن الأسد.

الأنصار:

بنو الأوس والخزرج ابنى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث.

أبناء معد:

ولد معد بن عدنان أربعة نفر: نزار، وقضاعة، وقنص، وإياد، فأما قضاعة فتيامنت إلى حمير بن سبأ.

نسب قضاعة:

قضاعة بن مالك بن حمير.

نسب النعمان:

كان من أشلاء قنص بن معد كما روى ذلك ابن إسحاق عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن:

سبب ذلك أنه رأى جُرزا (فأرا) يحفر فى سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك. فأوعز إلى ابنه أن يلطمه فلما فعل قال لا أمكث فى بلد لطمنى فيه ابنى الأصغر وباع أمواله وتبعته الأزد، فساروا حتى نزلوا بلاد عك فحاربتهم عك، فكانت حربهم سجالا، ثم ارتحلوا عنها، فتفرقوا فى البلدان ، فنزل آل جفنة بن عمر بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة قرا، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عدنان عمان، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل (سيل العرم) فهدمه وفيهم نزل قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ].

رؤيا ربيعة وتأويلها:

كان ربيعة بن نضر ملك اليمن بين أصفاف ملوك التتابعة، فرأي رؤيا هالته وفظع بها، فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عائفًا(١) ولا منجما(٢) من أهل مملكته إلا جمعه إليه. فقال لهم: إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها. فأخبرونى بها وبتأويلها ، قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق فإنه ليس أحد أعلم منهما. فهما يخبرانه بما سأل عنه.

نسب سطيح وشق:

سطيح بن ربيع بن ربيعة (بن مسعود) بن مازن بن مازن بن ذنب بن عدى بن مازن غسان. وشق : ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار، وأغار أبو بجيلة وخثعم، ودار بجيلة وخثعم يمانية.

سطيح بن بدى ربيعة بن نضر:

حضر سطيح قبل شق وروى للملك رؤياه قال: رأيت حممة(٣)، خرجت من ظلمة(٤) ، فوقعت بأرض تهمة(٥)، فأكلت منها كل ذات جمجمة(٦) ، فقال الملك ما أخطأت منها شيئا يا سطيح فما تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحرتين من

---

(١) العائف : الذى يعرف الأنساب بالتشابه بين الأعضاء.

(٢) المنجم الذى ينظر فى النجوم وهذا العلم محرم شرعا لأن المنجمين يزعمون معرفة الغيب بنظرهم إلى النجوم.

(٣) فحمة. (٤) من جهة البحر.

(٥) واسعة. (٦) رأس.

حبش[1]، لتهبطن أرضكم الحبش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش. فقال له الملك، وأبيك ياسطيح إن هذا لغائظ لنا موجع فمتى هو كائن ؟ أوفى زمانى هذا أم بعده؟ قال: لا ، بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين، قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟ قال: لا. بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين.

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إرم بن ذى يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن، قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال: نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى ، قال : وممن هذا النبى ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر، قال : وهل للدهر من آخر؟ قال : نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون.

قال : أحق ما تخبرنى ؟ قال : نعم، والشق والغسق، والفلق إذ اتسق، إن ما أنبأتك به لحق. ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان.

فروى له شق رؤياه وغيرها له بألفاظ قريبة من تعبير سطيح وبنفس المعانى.

هجرة ربيعة إلى العراق :

فوقع فى نفس ربيعة بن نضر ماقالا، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم. وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس وهو سابور بن خرزاذ ، فأسكنهم الحيرة، فمن بقية ولد ربيعة بن نضر النعمان بن المنذر.

---

(١) الثعابين .

استيلاء أبى كرب على ملك اليمن، وغزوه يثرب :

فلما هلك ربيعة بن نضر رجع ملك اليمن كله إلى حسان ابن تبان[1] اسعد أبى كرب، وهو تبع الآخر بن كلى كرب بن زيد (وزيد هو ابنه الأول) وتبان أسعد هو الذى قدم المدينة وساق الحبرين من يهود المدينة إلى اليمن وعمر البيت الحرام وكساه.

وكان قد جعل طريقه - حين أقبل من المشرق- على المدينة، وكان قد مر بها فى بدأته، فلم يهج أهلها، وخلف بين أظهرهم ابنا له فقتل غيلة (غدراً) فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخيلها، فجمع له هذا الحى من الأنصار، وفيهم عمرو بن طلة أخو بنى النجار.

سبب القتال :

كان رجل من بنى عدى بن النجار يسمى أحمر- عدا على رجل من أصحاب تبع حين نزل بهم، فقتله، وذلك أنه وجده فى عذق له يجده (يقطعه)، فضربه بمنجلة، فقتله، وقال: إنما الثمر لمن أبَّره (لقحه) فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم. قال : فاقتتلوا،

فكانت الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل (يضيفونه ويكرمونه ويطعمونه، فيعجبه ذلك منهم، ويقول : والله إن قومنا لكرام، فبينا تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار يهود بنى قريظة - عالمان راسخان فى العلم، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها. ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما : ولم ذلك ؟ فقالا : هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى

---

(١) تبان : ذكى فطن.

آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علما، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة ، واتبعهما على دينهما .

طواف تبع بالبيت :

قال ابن إسحاق: وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلي مكة، وهى طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عسفان واجج (عسفان) أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن نضر بن نزار بن معد، فقالوا له : أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال : بلى، قالوا : بيت بمكة يعبده أهله، ويصلون عنده، وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده، فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا، قال: فماذا تأمرانى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به ، وتعظمه، وتكرمه، وتحلق رأسك عنده، وتذل له حتى تخرج من عنده. قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك،

ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله، وبالدماء التى يهرقون عنده. وهم نجس أهل شرك. فعرف نصحهما وصدق حديثهما، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت، ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام ، فيما يذكرون ، ينحر بها للناس ، ويطعم أهلها، ويسقيهم العسل وأُرِى فى المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف (كساءً غليظا) ثم أُرِى أن يكسوه. أحسن من ذلك، فكساه المعافر،

ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الوصائل وكان تبع، فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم، وأمرهم بتطهيره، وأن لا يقربوه دما ولا منية ولا مثلاة (خرقة الحائض وهى المحائض) وجعل له بابا ومفتاحا.

دعوة أهل اليمن إلى دين تبع:

ثم خرج منها متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه، فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن. وهى نار زعموا أنها تأكل الظالم، ولا تضر المظلوم، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم. وخرج الحبران بمصاحفهما (التوراة) فى أعناقهما متقلديهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه، فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها (مالوا عن طريقها) وهابوها فزجرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما، فأصفقت (أجمعت) عند ذلك حمير على دينه فمن هناك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن[1].

الحبران يهدمان رئام:

وكان رئام بيت من بيوت اليمن المعظمة عندهم، ينحرون عنده ويُكَلَّمون[2] (منه) إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران لتبع إنما هو شيطان يفتنهم بذلك، فخل بيننا وبينه، قال: فشأنكما به، فاستخرجاه منه كما زعم أهل اليمن فذبحاه، ثم هدما البيت.

(١) وذلك لأن اليهودية أفضل من الشرك ولم يكن النبى ﷺ قد بعث بعد.

(٢) تكلمهم الشياطين.

•مقتل حسان بن تبان :

فلما هلك ابنه حسان بن تبان أسعد أبى كرب سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق، كرهت حمير وقبائل أهل اليمن المسير معه، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهلهم. فكلموا أخا له اسمه عمرو، وكان معه فى جيشه، فقالوا له: اقتل أخاك حسان، ونملكك علينا ، وترجع بنا إلى بلادنا، فأجابهم، فاجتمعوا على ذلك إلا ذارعين الحميرى من أشراف اليمن، فإنه نهاه عن ذلك، فلم يقبل منه. فلما عاد إلى اليمن سلط عليه السهر وندم على قتل أخيه فأخذ يقتل كل من حرضه على قتل أخيه من أشراف اليمن.

فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يسمى الخنيعة بيوف ذو شناتر ، فقتل خيارهم، وعبث ببيوت أهل المملكة منهم.

وكان لخنيعة أمراً فاسقا يعمل عمل قوم لوط، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه فى مشربة (غرفة مرتفعة) صنعها لذلك، لئلا يملك بعد ذلك، ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه ومن حضر من جنده قد أخذ سواكا فجعله فى فيه، ليعلمهم أنه قد فرغ منه. حتى بعث إلى زرعة ذى نواس بن تبان أسعد أخى حسان. وكان صبيا صغيرا حين قتل حسان ثم شب غلاما جميلا وسيما ذا هيئة وعقل، فلما أتاه رسوله عرف مايريد منه،

فأخذ سكينا حديداً لطيفاً، فخبأه بين قدمه ونعله، ثم أتاه. فلما خلا معه وثب إليه ، فواثبه ذو نواس ، فوجأه (طعنه) حتى قتله، ثم جز رأسه، فوضعه فى الكوة التى كان يشرف منها، ووضع سواكه فى فيه، ثم خرج على الناس فسألوه عما جرى فقال لهم سلوا الناس وانصرف مسرعا فخرجوا فى إثره حتى أدركوه، فقالوا: ما ينبغى أن يملكنا غيرك، إذ أرحتنا من هذا الخبيث.

ملك ذى نواس:

فملكوه، واجتمع عليه حمير وقبائل اليمن، فكان آخر ملوك حمير (وهو صاحب الأخدود) وتسمى يوسف، فأقام فى ملكه زمان.

وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل، أهل فضل واستقامة، لهم رأس اسمه عبد الله بن التامر، وكان موقع أصل ذلك الدين بنجران، وهى بأوسط أرض العرب فى ذلك الزمان. وكان سائر بلاد العرب أهل أوثان، وسبب دخول النصرانية إلي اليمن أن رجلا من بقايا أهل ذلك الدين إسمه فيميمون – وقع بين أظهرهم، فحملهم عليه. فدانوا به.

انتشار النصرانية فى نجران:

كان فيميون رجلا صالحا مجتهدا زاهداً فى الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحا ينزل القرى لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، وكان بناءً يعمل الطين، وكان يعظم الأحد فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئاً.

وخرج إلى فلاة من الأرض فصلى بها حتى يمسى، وكان في قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفيا. ففطن لشأنه رجل من أهلها يسمى صالح. فأحبه صالح حبا لم يحبه شيئا كان قبله، فكان يتبعه حيث ذهب، ولا يفطن له فيميون، حتى خرج مرة فى يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع وقد اتبعه صالح، وفيميون لا يدركه. فجلس صالح منه فنظر العين مستخفيا منه، لايحب أن يعلم بمقامه،

وقام تيميون يصلى، فبينما هو يصلى إذ أقبل نحوه التنين (الحية ذات الرؤوس السبعة) فلما رآها فيميون دعا عليها فماتت ورآها صالح ولم يدر ما أصابها، فخافها عليه فغلب على صبره فصرخ يا فيميون التنين قد أقبل نحوك،

فلم يلتفت إليه، وأقبل على صلاته حتى فرغ منها وأمسى، فانصرف ، وعرف أنه قد عرف، وعرف صالح أنه قد رأى مكانه، فقال له: يافيميون، تعلم والله إنى ما أحببت شيئا قط حبك، وقد أردت صحبتك، والكينونة معك حيث كنت، فقال: ماشئت، إنى كما ترى فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم، فلزمه صالح، وقد كاد أهل القرية يفطنون لشأنه.

وكان إذا فاجأه العبد به الضر دعا له فشفى، وإذا دعى إلى أحد به ضر لم يأته، وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فسأل عن شأن فيميون فقيل له : إنه لا يأت أحدا دعاه ، ولكنه رجل يعمل للناس البنيان بالأجر، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك ، فوضعه فى حجرته، وألقى عليه ثوبا .

ثم جاءه فقال له: يافيميون ، إنى أردت أن أعمل فى بيتى عملا، فانطلق معى إليه حتى تنظر إليه، فأشارطك عليه. فانطلق معه حتى دخل حجرته، ثم قال له: ما تريد أن تعمل فى بيتك هذا؟ قال : كذا وكذا، ثم رفع الرجل الثوب عن الصبى ثم قال له : يافيميون ، عبد من عباد الله أصابه ما ترى فادع الله له، فدعا له فيميون، فقام الصبى ليس به بأس.

وعرف فيميون أنه قد عُرف، فخرج من القرية، واتبعه صالح، فبينما هو يمشى فى بعض الشام إذ مر بشجرة عظيمة ، فناداه منها رجل ، فقال: يافيميون، قال : نعم : قال : مازلت انظرك وأقول : متى هو جاء ؟ حتى سمعت صوتك ، فعرفت أن هو، لا تبرح حتى تقوم على فإنى ميت الآن. فمات.

وقام عليه حتى واراه، ثم انصرف، وتبعه صالح حتى وطئا بعض أرض العرب، فعدوا عليهما، فاختطفتهما سيارة من بعض العرب، فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران، وأهل نجران يومئذ على دين العرب. يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن

وجدوه، وحلى النساء، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوما، فأبتاع فيميون رجل من أشرافهم، وابتاع صالح آخر

فكان فيميون إذا قام من الليل يتهجد فى بيت له أسكنه إياه سيده يصلي استسرج له البيت (أضاء) نوراً حتى يصبح، من غير مصباح فرأى ذلك سيده، فأعجبه مايرى منه، فسأله عن دينه، فأخبره به.

وقال له فيميون : إنما أنتم فى باطل، إن النخلة لا تضر ولا تنفع، ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده أهلكها، وهو الله وحده لا شريك له. فقال سيده: فافعل فإنك إن فعلت دخلنا فى دينك وتركنا مانحن عليه. فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عليها، فأرسل الله عليها ريحا فجعفتها (قلعتها) من أصلها فألقتها، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه ، فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليهما السلام، ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض. فمن هنالك كانت النصرانية بنجران فى أرض العرب.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث وهب بن منبه عن أهل نجران.

قصة عبد الله بن التامر:

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، وحدثنى أيضا بعض أهل نجران عن أهلها، أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان فى قرية من قراها - قريبا من نجران، ونجران القرية العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد- ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيميون - ولم يسموه لى باسمه (الذى سماه به وهب بن منبه)، قالوا: رجل نزلها- ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى بها الساحر، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر.

فبعث إليه التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى منه من صلاته وعبادته. فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم فوحد الله وعبده. وجعل يسأله عن شرائع الإسلام. حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم. وكان يعلمه، فكتمه إياه.

فقال له: يا ابن أمى، إنك لن تحمله، أخشى عليك ضعفك عنه- والتامر أبو عبد الله لا يظن لله اسما يعلمه إلا كتبه فى قدح، بكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا، ثم جعل يقذفها بها قدحا قدحا، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف به فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شئ فأخذه ثم أتى صاحبه فأخبره بأنه قد علم الاسم الذى كتمه، فقال : وما هو؟ قال: هو كذا وكذا، قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع قال : أى ابن أخى، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل، فجعل عبد الله بن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضر الا قال :

يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل فى دينى وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم ويدعو له فيشفى، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه فاتبعه على أمره، ودعا له فعوفى، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه، فقال : أفسدت علىَّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين أبائى.

لأمثلن بك، قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ليس به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بخور لا يقع فيها شئ إلا هلك فيلقى فيها، فيخرج ليس به بأس، فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر :

إنك والله لن تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن

فعلت ذلك سلطت على فقتلني. قال: فوحد الله تعالى ذلك الملك ، وشهد عبد الله بن التامر، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله، ثم هلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر، وكان على ماجاء به عيسى ابن مريم صلوات الله عليه من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم مثل ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ، فمن هناك كان أصل النصرانية بنجران.

دعوة ذى نواس

إلى اليهودية

فسار اليهم ذو نواس بجنوده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك والقتل، فاختاروا القتل، فخد لهم الأخدود، فحرق من حرق بالنار، وقتل بالسيف . ومثل بهم، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفاً.

ففي ذى نواس ذلك وجنده أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ :

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ [البروج].

ماهو الأخدود :

قال ابن هشام : الأخدود : الحفر المستطيل فى الأرض كالخندق والجدول ونحوه، وجمعه أخاديد.

قال ابن إسحق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أنه حدث، أن رجلا من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته، فوجدوا عبد الله بن التامر

تحت دفن منها، قاعدا واضعا يده على ضربة فى رأسه ممسكا عليها بيده، فإذا أخرت يده عنها تنبعث دما وإذا أرسلت ردها عليها فأمسكت دمها، وفى يده خاتم مكتوب فيه "ربى الله" فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبر بأمره فكتب إليهم عمر رضى الله عنه، أن أقروه على حالته، وردوا عليه الدفن الذى كان عليه. ففعلوا.

قلت : وهناك رواية أن الغلام (عبد الله بن التامر) قال للملك إنك لن تسلط على حتى تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تأتى بسهم وتقول باسم الله رب الغلام وترمينى به فأموت ففعل الملك ذلك فأسلم الناس فقالوا للملك وقع ما كنت تخشاه فخد الأخاديد.. الحديث.

فرار ذو ثعلبان

وأفلت منهم رجل من سبأ ، يقال له دوس ذو ثعلبان، على فرس له ، فسلك الرمل، فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك، حتى أتى قيصر ملك الروم، فاستنصره على ذى نواس وجنوده، فأخبره بما بلغ منهم ، فقال له: بعدت بلادك عنا، ولكنى سأكتب إلى ملك الحبشة، فإنه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك وكتب إليه فأمره بنصره، والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة.

وأمر عليهم رجلا منهم يقال له أرياط، ومعه فى جنده أبرهة الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان. وسار إليه ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه فى البحر، ثم ضربه، فدخل به فخاض به ضحضاح(١) البحر حتى أفضى به إلى غمرة(٢)

---

(١) الماء القليل. (٢) الغمر: الماء الكثير.

فأدخله فيه، وكان آخر العهد به. ودخل أرياط اليمن فملكها. ثم كان ماكان من اختلاف أبرهة وأرياط وقتل أبرهة له وبناء القليس لصرف حج العرب إليها، وواقعة الفيل المذكور فى القرآن الكريم باسم سورة الفيل.

أول من نسأ الشهور :

وكان أول من نسأ الشهور على العرب القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم ثم قام بعده ابنه عباد بن حذيفة ثم قام بعد عباد قلع بن عباد ثم أمية بن قلع، ثم عوف بن أمية، ثم أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام.

وكانت العرب - إذا فرغت من حجها- اجتمعت إليه، فحرم الأشهر الحرم الأربعة، رجبًا، وذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم، فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل المحرم فأحلوه، وحرم مكانه صفر فحرموه، ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم، فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال : اللهم إنى قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الأول، ونسأت الآخر العام المقبل، فخرج الكنانى حتى أتى القليس وقعد فيها أى أحدث.

سيف بن ذى يزن الحميرى يطالب بملك اليمن :

لما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة، وبه كان يكنى، فلما هلك يكسوم بن أبرهة ملك اليمن فى الحبشة أخوه مسروق، فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى ، وكان يكنى بأبى مرة، حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرجهم عنه، ويليهم هو، ويبعث إليهم من يشاء من الروم فيكون له ملك اليمن، فلم يشكه (لم يزل أسباب شكايته) فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق.

فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان : إن لي على كسرى وفادة فى كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك، ففعل، ثم خرج معه، فأدخله على كسرى ، وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذي فيه تاجه، وكان تاجه مثل القيقل (المكيال) العظيم يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك، وكانت عنقه لا تحمل تاجه، إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك، ثم يدخل رأسه فى تاجه، فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا برك هيبة له، فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن برك.

ثم قال له : أيها الملك، غلبتنا على بلادنا الأغربة (جمع غراب).

فقال له كسرى: أي الأغربة: الحبشة، أم السند ؟ فقال: بل الحبشة، فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادى لك[1].

قال : بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب[2]، لا حاجة لى بذلك، ثم أجازه بعشرة الاف درهم وكسوة حسنة. فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورِق للناس (الفضة). فبلغ ذلك الملك، فقال : إن لهذا لشأنا، ثم بعث إليه ، فقال :

عمدت إلى حباء الملك تنشره للناس !! فقال :

وما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضه!! يرغبه فيها، فجمع كسرى مرازبته فقال لهم :

ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل منهم : أيها الملك ، إن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل، فلو

---

(١) أى استبدل احتلالا نصرانيا باحتلال مجوسى

(٢) هكذا الدول العظمى لا تعمل إلا لمصلحتها.

أنك بثعتهم معه فإن يهلكوا كاں ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا كان ملكا أزددته، بعثتهم معه كسرى مں كان فى سجونه، وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم رجلا منهم يقال له وهرر، وكان ذاسن فيهم، وأفضلهم حسبا وبيتا .فخرجوا فى ثمان سفن ، فغرقت سفينتان، ووصل إلى ساحل عدن ست سفن فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه، وقال له رجل مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا، قال له وهرز : أنصفت.

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن، وجمع إليه جنده ، فأرسل إليهم وهرز ابنا له ليقاتلهم فيختبر قتالهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حنقا عليهم، فلما توقف الناس على مصافهم قال وهرز : أرونى ملكهم ، فقالوا له : أترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوته حمراء ؟ قال : نعم، قالوا : ذاك ملكهم. فقال : اتركوه، قال : فوقفوا طويلا، ثم قال: علام هو؟ قالوا: قد تحول على الفرس، قال : اتركوه، فوقفوا طويلا، ثم قال :

علام هو ؟ قالوا : قد تحول على البغلة، قال وهرز : بنت الحمار ذل وذل ملكه، إنى سأرميه، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم، فإنى قد أخطأت الرجل، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولا ثوا به (اجتمعوا حوله)، فقد أصبت الرجل فاحملوا عليه، ثم وتر قوسه، وكانت لا يوترها غيره من شدتها، وأمر بحاجبيه فعصبا له،

ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه، ونكس رايته عنه واستدارت الحبشة ولاثت به، وحملت عليهم الفرس ، وانهزموا فقتلوا وهربوا فى كل وجه، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال: لا تدخل رايتى منكسة أبدا. اهدموا الباب، فهدم، ثم دخلها ناصبا رايته.

قصة الفرس باليمن

فأقام وهرز والفرس باليمن، وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط إلى أن قتلت الفرس مسروق وأخرجت الحبشة اثنين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة: أرياط، ثم أبرهة، ثم يكسوم ثم مسروق بن أبرهة.

قال ابن هشام : ثم مات وهرز فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن، ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان بن المرزبان على اليمن. ثم مات التينجان فأمر كسرى ابن التينجان علي اليمن، ثم عزله وأمر باذان. فلم يزل باذان عليها حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ .

كتاب كسرى إلى باذان :

قال الزهرى : كتب كسرى إلي باذان : أنه بلغنا أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه.

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا، فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر، وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال، فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله ﷺ .

وهو كسرى أنو شروان عليه لعنة الله.

قال ابن هشام : قتل على يدى ابنه شيرويه.

قال الزهرى : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ ، فقالت الرسل من الفرس لرسول الله ﷺ : إلى من نحن يارسول الله ؟ قال: " أنتم منا وإلينا أهل البيت".

ملك الحضر

غزا كسرى سابوردو الأكتاف ساطرون ملك الحضر- وهى مدينة كالحصن العظيم على شاطئ الفرات، فحضره سنين ، فأشرفت بنت ساطرون يوما، فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلا، فأرسلت إليه : أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحضر؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه، فبعثت بها مع مولى لها، ففتح الباب، فدخل سابور، فقتل ساطرون واستباح الحضر وضربه، وسار بها معه ، فتزوجها، فبينما هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تتململ لاتنام، فدعا لها بشمع، ففتش فراشها، فوجد عليه ورقة آس.

فقال لها سابور: أهذا الذى أسهرك؟ قالت : نعم ، قال . فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لى الديباج، ويلبسنى الحرير، ويطعمنى المخ ويسقينى الخمر. قال : وكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع، ثم أمر بها ، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

ولد نزار بن معد

قال ابن إسحاق   فولد نزار بن معد ثلاثة نفر: مضر بن نزار، وربيعة بن نزار ، فأنمار بن نزار.

قال ابن هشام : وإياد بن نزار.

فأُم مضر وإياد : سودة بنت عك بن عدنان، وأم ربيعة وأنمار: شقيقة بنت عك بن عدنان، ويقال : جمعة بنت عك بن عدنان.

فأنمار أبو خثعم وبجيلة، وقد تيامنت فلحقت باليمن.

فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس بن مضر، وعيلان ابن مضر. وأمهما جرهمية.

فولد إلياس بن مضر ثلاثة نفر: مدركة بن إلياس ، وطابخة بن إلياس، وقمعة، وامهم خندِف، إمرأة من اليمن. وهى خندف بنت عمر أم بن إلحاف بن قضاعة.

وكان اسم مدركة عامرا، واسم طابخة عمرا، وزعموا أنهما كانا في إبل لهما يرعيانها، فاتت صيدا، فقعدا عليه يطبخانه، وعدت عادية على إبلهما فقال عامر لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال : عمر : بل أطبخ، فلحق عامر بالإبل فجاء بها ، فلما راحا على أبيهما حدثاه بشأنهما، فقال لعامر : أنت مدركة، وقال لعمرو : وأنت طابخة، وأما قمعة فيزعم نساب مضر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحى بن قمعة من إلياس.

عمرو بن لحى وأصنام العرب

روى ابن إسحاق بسنده إلى عمرو بن حزم قال: حُدثت أن رسول الله ﷺ قال: رأيت عمرو بن لحى يجر قصبة(١) فى النار، فسألته عمن بينى وبينه من الناس فقال : هلكوا.

وروى إبن إسحاق بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول لأكثم بن الجون الخزاعى : " يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قُصبه فى النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل مثله به، ولا بك منه، فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ، قال: لا، إنك مؤمن وهو كافر. إنه كان أول من غير دين إسماعيل : فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى.

(١) قصبة : أمعاؤه.

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقان، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق، ويقال: عمليق، بن لاوذ بن سام بن نوح. رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنسمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير بها إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

قال ابن إسحاق:

ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل أنه كان لا يظعن(١) من مكة ظاعن منهم. حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح فى البلاد، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وأعجبهم ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة.

هوى البُدن ، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه، فكانت كنانة قريش إذا أهلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه ومامِلك، فيوحدون بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ :

(١) يسافر ويرتحل.

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ : أى : ما يوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى.

وقد كانت لقوم نوح أصنام قد عكفوا عليها قص الله تبارك وتعالى خبرها على رسوله ﷺ فقال:

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ﴾ [نوح].

بعض أصنام العرب

ومن اتخذها

فكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين إسماعيل هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، اتخذوا سواعا وكان لهم برهاط، وكلب بن وبرة من قضاعة، اتخذوا ودا بدومة الجندل.

قال ابن هشام : وكلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة.

قال ابن إسحاق : وأنعم من طيى وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بجرش.

قال ابن هشام : بل أنعم، وطيئ: ابن أدد بن مالك ، ومالك : مذحج بن أدد، ويقال: طيئ : ابن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ.

وخيوان بطن من همدان اتخذوا يعوق بأرض همدان من أرض اليمن.

وهمدان هو اسلة بن مالك بن زيد.

وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسرا بأرض حمير.

وكان لخولان صنم يقال له عُميانس بأرض خولان، يقسمون له من أنعامهم وحروبهم قسما بينه وبين الله بزعمهم، فما دخل فى حق عميانس من حق الله تعالى الذى سموه له تركوه له، وما دخل فى حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه، وهم بطن من خولان يقال لهم الأديم ، دينهم أنزل الله تبارك وتعالى فيما يذكرون :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام].

وكان لبنى ملكان بن كنانة صنم يقال له سعد، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة، فأقبل رجل من بنى ملكان بابل له مؤبلة[١] ليقفوا عليه، التماس بركته، فلما رأته الإبل، وكانت مرعية لا تركب، وكان يهراق عليه الدماء، نفرت منه، فذهبت فى كل وجه، وغضب ربها الملكانى، فأخذ حجرا فرماه، ثم قال: لا بارك الله فيك، نفرت علىَّ ابلى، ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ثم أنشد:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة تبنوفة ... من الأرض لايدعو لغى ولا رشد

وكان فى دوس صنم لعمرو بن حممة الدوسى.

وكانت قريش قد اتخذت صنماعلى بئر فى جوف الكعبة يقال هبل واتخذوا إسافا ونائلة على موضع زمزم، ينحرون عندها، وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم، هو إساف بن بغى، ونائلة بنت ديك، فوقع إساف على نائلة فى

(١) موبلة : كثيرة متخذة للكسب.

الكعبة، فمسخهما الله حجرين.

وروى ابن إسحاق بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : ما زلنا نسمع أن إسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم أحدثا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين.

قال ابن إسحاق : وقال أبو طالب:

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم بمقضى السيول من إساف ونائل

تعظيم العرب للأصنام

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله.

فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش :

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾ [ص]،

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب، وتهدى إليها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده.

وكانت لقريش وبنى كنانة العُزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم.

وكانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشل بالقديد.

وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة.

أما مناة فأرسل إليها رسول الله ﷺ أبا سفيان وقيل على لهدمها وأما ذو الخلصة فهدمها جرير بن عبد الله البجلى بأمر رسول الله ﷺ. وكان فلس لطئ ومن يليها بجبل طئ.

وقد أرسل رسول الله ﷺ عليا رضى الله عنه فهدمه ، فوجد فيها سيفين الرسوب والمخدم، فأتى بهما رسول الله ﷺ فوهبهما له.

وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له رئام.

وكان وضاء بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابنى وائل وإياد بسنداد.

البحيرة والسائبة

والو صيلة والحامى

قال ابن إسحاق : فأما البحيرة فهى بنت السائبة ، والسائبة: الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت، فلم يركب ظهرها، ولم يجزوا وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف.

فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها، ثم خلي سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجزوا وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهى البحيرة بنت السائبة.

والوصيلة: الشاة إذا أتأمت (أتت بتوائم) عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شئ فيشتركوا فى أكله، ذكورهم وإناثهم.

والحامى :

الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهم ذكر حمى ظهره، فلم يركب ظهره، ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك.

قال ابن هشام: وهذا كله عند العرب على غير هذا، إلا الحامى فإنه عندهم على ما قال ابن إسحاق.

والبحيرة عندهم : الناقة تشق أذنها، فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، أو يتصدق به، وتهل لآلهتهم.

والسائبة : التى ينذر الرجل أن يسيبها إن برئ من مرضه،أو إن أصاب أمرا يطلبه، فإذا كان ذلك أساب ناقة من إبله أو جملا لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها.

والوصيلة : التى تلد أمها اثنين فى كل بطن، فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها، ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن، فيقولون: " وصلت أخاها" فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أنزل عليه:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة].

وأنزل الله تعالى :

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾ [الأنعام].

وأنزل عليه : ﴿ قُلْ أرأيْتم مَّا أنزل اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فجعلْتُم مِّنْهُ حرامًا وحلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أمْ على اللَّه تفْتَرُون (٥٩) ﴾ [يونس].

وأنزل عليه : ﴿ ثمانية أزْواجٍ مِّن الضَّأْن اثْنيْنِ ومن الْمعْزِ اثْنيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتملتْ عليْه أرْحامُ الأُنثيَيْنِ نبِّئُوني بِعلْمٍ إن كُنتُمْ صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثْنيْنِ ومن الْبقرِ اثْنيْنِ قُلْ آلذَّكَريْنِ حرَّمَ أم الأُنثيَيْنِ أمَّا اشْتملتْ عليْه أرْحامُ الأُنثيَيْنِ أمْ كُنتُمْ شُهداء إذْ وصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فمنْ أظْلمُ ممَّنِ افْترى على اللَّهِ كذبًا لِّيُضِلَّ النَّاس بِغيْرِ عِلْمٍ إنَّ اللَّه لا يهْدي الْقوْم الظَّالمين (١٤٤) ﴾ [الأنعام].

نسب خزاعة :

هم بنو عمر بن عامر بن اليمن، وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر.

أصل كلمة قريش:

سميت قريش قرشا من التقرش، والتقرش التجارة والاكتساب، أو لتجمعها بعدتفرقها.

قصة سامة

خرج سامة بن لؤى إلى عمان، وكان بها، وكان عامر بن لؤى أخرجه، وذلك أنه كان بينهما شئ، ففقأ سامة عين عامر ، فأخافه عامر ، فخرج إلى عمان، فبينما هو يسير على ناقته إذ وضعت رأسها ترتع، فأخذت حية بمشفرها (شفتيها) فهصرتها (أمالتها) حتى وقعت الناقة لشقها (جنبها) ثم نهشت سامة فقتلته، فأنشد سامة قصيدة تروى ما حدث له عندما أحس بالموت.

عبد المطلب بن هاشم وأولاده

قال ابن هشام: ولد لعبد المطلب بن هاشم عشرة نفر وست نفرة. العباس، وحمزة، وعبد الله، وأبو طالب وعبد مناف، والزبير، والحارث، ومجلا، والمقدم، وضرار، وأبو لهب وعبد العزى.

والنساء : صفية، وأم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرة.

زوجات عبد المطلب :

فأم العباس وضرار: نتيلة بنت جناب بن كليب.

وأم حمزة والمقدم، وحجل (وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله).

وأم صفية : هالة بنت وهيب بن عبد مناه بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى.

وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع النساء غير صفية : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن قرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

وأم حمزة : تخمر بنت عبد بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى.

وأم الحارث بن عبد المطلب : سمراء بنت جندب بن سواءة بن عامر.

وأم أبى لهب : لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر بن حبشية بن سلوان كعب بن عمرو الخزاعي.

قال ابن هشام : فولد عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ﷺ سيد ولد آدم: محمد عبد الله بن عبد المطلب، صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله.

وأمه · آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وأمها: برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن نضر

قال ابن هشام : فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسبا وأفضلهم نسبا من قبل أبيه وأمه ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم.

بئر إسماعيل :

بينما عبد المطلب بن هاشم نائمًا فى الحجر إذ أتى فأمر بحفر زمزم، وهى دفن بين صنمى قريش إساف ونائلة ، عند منحر قريش، وكانت جرهم دفنتها حين ظعنوا (رحلوا) من مكة، وهى بئر إسماعيل بن إبراهيم التى سقاه الله حين ظمئ وهو صغير فالتمست له أمه ماء فلم تجده، فقامت على الصفا تدعو الله وتستغيثه لإسماعيل، ثم أتت المروة ففعلت مثل ذلك، وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فهمز له بعقبه فى الأرض، فظهر لها الماء، وسمعت أمه أصوات السباع فخافتها عليه، فجاءت تشتد نحوه، فوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خده ويشرب فجعلته حسيا (حفيرة صغيرة).

جرهم ودفن زمزم

ولاة البيت بعد وفاة إسماعيل :

قال ابن هشام . وكان من حديث جرهم ودفنها زمزم وخروجها من مكة ، ومن ولى أمر مكة بعدها إلى أن حفر عبد المطلب زمزم، ما حدثنا به زياد بن عبد الله البكائى، عن محمد بن إسحاق، قال : لما توفى إسماعيل بن إبراهيم ولى البيت بعده ابنه نابت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليه، ثم ولى البيت بعده مضاض بن عمرو الجرهمى.

قال ابن إسحاق. وبنو إسماعيل وبنو نابت مع جدهم مضاض بن عمرو، وأخوالهم من جدهم ، وجرهم وقطوراء يومئذ أهل مكة، وهما أبنا عم ، وكانا ظعنا من اليمن فأمتلا سيارة وعلى جرهم مضاض بن عمرو، وعلى قطوراء السميدع رجل منهم، وكانوا إذا خرجوا من اليمن لم يخرجوا إلا ولهم ملك يقيم أمرهم، فلما نزلا مكة رأيا ذا ماء وشجر، فأعجبهما، فنزلا به ، فنزل مضاض بن عمرو ومن معه من جرهم بأعلى مكة بقيعيقان فما حاز، ونزل السميدع بقطوراء أسفل مكة بأجياد فما حاز، فكان مضاض يعشر(١) من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع يعشر من دخل مكة من أسفلها، وكل فى قومه لا يدخل واحد منهما على صاحبه.

حرب جرهم وقطوراء :

ثم إن جرهم وقطوراء بغى بعضهم علي بعض، وتنافسوا الملك بها، ومع مضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نابت، واليه ولاية البيت دون السميدع ، فسار بعضهم إلى بعض ، فخرج مضاض بن عمرو، من قعيعقان فى كتيبة سائرا إلى السميدع، ومع كتيبته عدتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب يقعقع بذلك معه، وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال، فالتقوا بفاضح، واقتتلوا قتالا شديدا، فقتل السميدع وفضحت قطوراء.

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح، فساروا حتى نزلوا : المطابخ، شِعبا بأعلى مكة، واصطلحوا به، وأسلموا الأمر إلى مضاض، فلما جمع إليه أمر مكة فصار ملكها له نحر للناس فأطعمهم فأطبخ الناس وأكلوا.

ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت ، والحكام بمكة، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك، لخئولهم وقرابتها، إعظاما للحرمة أن

---

(١) يأخذ عشر التجارة كضريبة مرور

يكون بها بها بغى أو قتال، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد فلا ينادون (يعادون إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم) .

ثم إن جرهما بغوا بمكة، واستحلوا خلالا من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، فرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، فآذنوهم بالحرب، فاقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر وغيشان، فنفوهم من مكة.

فضل مكة

وكانت مكة في الجاهلية لا يقر فيها ظلما ولا بغيا، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته، فكانت تسمى الناسة ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال: إنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تبك (تكسر) اعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا. وقيل بكة لأن الناس يتبكون فيها أى يزدحمون.

ولاية البيت لخزاعة :

ثم أن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى، وقريش إذ ذاك حلول وحرم (جماعات متقطعة) وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة، فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرهم خليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى.

قصى يتزوج بنت حليل:

ثم إن قصى بن كلاب خطب إلى حليل بن حبشية بنته حبى، فرغبت فيه حلل، فزوجه ، فولدت له عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبدا ، فلما انتشر ولد قصى، وكثر ماله، وعظم شرفه، هلك حليل، فرأى قصى أنه أولى بالكعبة من

خزاعة وبنى بكر، وأن قريشا قرعة (نخبة) إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وصريح ولده، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة، فأجابوه.

قصى بن كلاب يغلب على أمر مكة ويجمع أمر قريش

قاتل قصى صونة والغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر الذى يلى للناس بالحج من عرفة ، وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك.

قتال قصى لخزاعة وبنى بكر:

وانحازت عن ذلك خراعة وبنو بكر عن قصى، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صدفة، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر بكة، فلما انحازوا عنه بادأهم، وجمع لحربهم، وخرجت له بنو خزاعة وبنو بكر، فالتقوا ، فاقتتلوا قتالا شديدا، حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعا، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح. وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب، فحكموا يعمر بن عوف ابن كعب، فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع تحت قدميه (لا دية فيه) أن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداه ، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة.

ولاية قصى أمر مكة:

فولى قصى البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه أقر للعرب ماكانوا عليه، وذلك أنه كان يراه

دينا فى نفسه لا ينبغى تغييره، فأقر أل صفوان وعدوان من والنسأه ومرة بن عوف على ما كانوا عليه، حتى جاء الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله.

فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة(١) والسقاية(٢)، والرفادة(٣) والندوة(٤) واللواء(٥).

فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة رباعا بين قومه وقطع شجر الحرم من أجل البناء، وتيمنت قريش به، فما تنكح امرأة، ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء الحرب إلا فى داره.

قصى يخص ولده عبد الدار:

فلما كبر قصى ورق عظمه، وكان عبد الدار بكره، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه، وذهب كل مذهب، قال قصى لعبد الدار.

أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم. وإن كانوا قد شرفوا عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك، فأعطاه دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها، فأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة.

---

(١) مفتاح الكعبة.

(٢) سقاية زمزم.

(٣) الرفادة: طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم.

(٤) الندوة : دار الاجتماع والمشورة.

(٥) اللواء : لواء الحرب.

الرفادة:

وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب، فيصنع طعاما للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولازاد، وذلك أن قصيا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به.

يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته ، وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجا، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاما للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه، حتى قام الاسلام، ثم جرى فى الاسلام، فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج.

اختلاف قريش بعد قصى

ثم إن قصيا هلك، فأقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده، فاختطوا مكة رباعا، بعد الذى كان قطع لقومه بها، فكانوا يقطعونها فى قومهم وفى غيرهم من حلفائهم ويبيعونها،

فأقامت على ذلك قريش معم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع، ثم إن فى عبد مناف بن قصى عبد شمس وهاشما والمطلب ونوفلا أجمعوا على أن يأخذوا مابأيدى بنى عبد الدار، مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم.

لشرفهم عليهم، وفضلهم فى قومهم فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار! لكانهم فى قومهم، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار، يرون أن لا ينزع منهم ماكان قصى

جعل إليهم، فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس وذلك أنه كان أسن بنى عبد مناف، وكان صاحب أمر بنى عبد الدار عامر بن هاشم،

وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة ابن كلاب وبنو تيم بن مُرة، وبنو كعب وبنوا الحارث بن فهر من مالك بن النضر مع بنى عبد مناف، وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب وبنو مذحج بن عمرو بن هصيص بن كعب وبنو جمح عدى بن كعب مع بنى عبد الدار، وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين.

فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا، على أن لايتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضا، ما بل بحر صونة.

فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا، فيزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم، فسموا المطيبين.

الأحلاف :

وتعاقد بنو عبد الدار، وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا على أن لايتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضا، فسموا الأحلاف.

ثم سوند بين القبائل، ولذا بعضها ببعض، فعبيت بنو عبد مناف لبنى سهم، وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار، وعبيت بنو زهرة لبنى جمح، وعبيت بنو تيم لبنى مخزوم، وعبيت بنو الحارث بن فهر لبنى عدى بن كعب، ثم قالوا لتغز كل قبيلة على من أسند إليها.

الصلح بين الفريقين :

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح، على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت، ففعلوا ، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك، وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ : ماكان من حلف فى الجاهلية فإن الاسلام لم يزدد إلا شدة.

حلف الفضول

وأما حلف الفضول : قال ابن هشام حدثنى زيادة بن عبد الله (البكائى) عن محمد بن إسحاق، قال: تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جُدعان بن عمر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤى لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده، بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم مُرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وأعانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال ابن إسحاق: فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى يقول: قال رسول الله ﷺ : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الاسلام لأجبت.

هاشم بن عبد مناف يلي الرفادة :

فولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف، وذلك أن عبد شمس كان

رجلا سفارا قلما يقيم بمكة، وكان مقلا ذا ولد، وكان هاشم موسرا، وكان إذا حضر الحج قام فى قريش فقال: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وأنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاما أيامهم هذه التى لابد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالى يسع لذلك ما كلفتكموه، فيخرجون لذلك خرجا من أموالهم، كل امرئ بقدر ماعنده، فيصنع به للحجاج طعام حتى يصدروا منها(١).

مآثر هاشم على قومه :

وكان هاشم أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء ، والصيف، وأول من أطعم الثريد للحجاج. وإنما كان اسمه عمرا فما سمى هاشما إلا بهشمه الخبز بمكة لقومه.

المطلب يتولى السقاية والرفادة :

ثم هلك بن عبد مناف بغزة من أرض الشام تاجرا، فولي السقاية والرفادة من بعده المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وكان ذا شرف فى قومه وفضل، وكانت قريش إنما تسميه الفيض، لسماحته وفضله، وكان هاشم قد قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار، وكانت قبله عند احيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحيحى بن كلنه، فولدت له عمرو بن احيحه وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها: إذا كرهت رجلا فارقته، فولدت لهاشم عبد المطلب، فسمته شيبة فتركه هاشم عندها حتى كان وصيفا أو فوق ذلك، ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فليحقه ببلده وقومه، فقالت له سلمى .

---

(١) يتصرفوا عنها إلى بلادهم

لست بمرسلته معك، فقال لها المطلب : إنى غير منصرف حتى أخرج به معى، إن ابن أخى قد بلغ وهو غريب فى غير قومه، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا، فيلى كثيرا من أمرهم، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة فى غيرهم.

وقال شيبة لعمه المطلب فيما يزعمون : لست بمفارقها إلا أن تأذن لى، فأذنت له، ودفعته إليه، فاحتمله، فدخل به مكة مردفه معه على بعيره، فقالت قريش: عبد المطلب، ابتاعه، فبها سمى شيبة عبد المطلب، فقال المطلب: ويحكم!! إنما هو ابن أخى هاشم ، فقدمت به من المدينة.

وفاة المطلب :

ثم هلك المطلب بردمان من أرض اليمن، فقال رجل من العرب يبكيه:

قد ظمى الحجيج بعد عبد المطلب بعد الجفان والشراب المنثعب

ليت قريشا بعده على نصب

وكان اسم عبد مناف المغيرة، وكان أول بنى عبد مناف هلكا هاشم بغزة من أرض الشام، ثم عبد شمس بمكة، ثم المطلب، بردمان من ناحية أرض اليمن، ثم نوفل بسلمان من ناحية العراق.

السقاية والرفادة وعبد المطلب :

ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم.

حفر زمـزم

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم فى الحجر إذ أتى فأُمر بحفر زمزم.

وكان أول ما ابتدى به عبد المطلب من حفرها، كما روى الإمام على رضى الله عنه قال: قال عبد المطلب : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال: احفر طيبة[1] قال: قلت : وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عنى، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى، فنمت فيه، فجاءنى، فقال: احفر زمزم، قال: قلت : وما زمزم؟ قال لاتنزف[2] أبدا ولا تذم[3]، وتسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم[4] عند نقرة الغراب الأعصم[5] عند قرية النمل.

قريش تنازع عبد المطلب وتحتكم فى شأنها:

فلما بين له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، ليس له يومئذ ولد غيره. فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطى كبرّ ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وأن لنا فيها حقا، فأشركنا معك فيها، قال : ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، فقالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا كاهنة بنى سعد هذيم. قال : نعم.

وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى

---

(١) طيبة لأنها للطيبين والطيبات، وقيل لها برة لأنها فاضت على الأبرار ومضنونة لأنها تضن على المنافقين فلا يتضلعون منها.

(٢) لا تنزف: لا يفرغ ماؤها

(٣) لا تذم: لا يقل ماؤها.

(٤) الفرث مايكون فى الكرش

(٥) أحمر المنقار والرجلين أو أبيض البطن.

عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفرا قال: والأرض إذ ذاك مفاوز[1]، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فنى ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم، فقالوا: إنا بمفازة، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمرنا بما شئت . قال: فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الأن من القوة، فكلما مات رجل دفنه أصحابه فى حفرته، ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلا واحدا. فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا، قالوا: نعم ما أمرت به.

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا لعجر، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا، فارتحلوا، حتى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ماهم فاعلون تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها،

فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب. فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش ، فقال: هلم إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، فجاءوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لانخاصمك فى زمزم أبدا، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبينها. أ.هـ.

---

(١) مفاوز : صحراء جرداء ليس فيها زرع ولا ماء ظاهر .

لما تمادى عبد المطلب به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب، هما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة - ووجد فيها أسيافا قلعة (تشبه إلى قلعة فى الهند أو الصين) وأدراعا، فقالت قريش له : يا عبد المطلب، لنا معك فى هذا شرك وحق، قال: لا، ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم، نضرب بالقداح .

قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولى قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شئ كان له ومن تخلف قدحاه فلا شئ له، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذى يضرب بها عند هبل (وهبل صنم فى جوف الكعبة وهو أعظم أصنامهم وهو الذى يعنى أبو سفيان بن حرب يوم أحد حين قال: أعْلُ هبل، أى أظهر دينك.

وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل فضرب صاحب القداح ، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حُلته الكعبة.

ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج.

وعفت زمزم على المياه التى كانت قبلها يسقى عليها الحجاج، وانصرف الناس إليها، لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ماسواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وفاخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها

عبد المطلب ينذر ذبح ولد من أولاده:

وكان عبد المطلب قد نذر حين لقى من قريش مالقى عند حفر زمزم، لئن ولد له عشر نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما

توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، فجمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء له بذلك، فأطاعوه، وقالوا: كيف تصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا، ثم يكتب فيه اسمه، ثم أئتونى، ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة.

ضرب القداح عند هبل :

وكان هبل على بئر فى جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل قداح سبعة (كل قدح منها فيه كتاب) قدح منها فيه (العقل إذا اختلفوا فى العقل (الدية) من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله، وقدح فيه نعم يعملوا به، وقدح منه لا للأمر إذا أرادوه يضرب به فى القداح فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه (منكم)، وقدح فيه ملصق، وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا القداح، وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به، وكانوا إذا أرادوا أن يختتنوا غلاماً، أو ينكحوا منكحا، أو يدفنوا ميتا، أو شكوا فى نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل، وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان ابن فلان،

قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه، ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليكم منكم كان منهم وسيطا وإن خرج عليه من غيركم كان لصيقًا، وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شئ مما سوى هذا مما يعملون به. نعم ، عملوا به ، وإن خرج لا أخروه عامه ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى، ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح.

عبد المطلب يستهم على بنيه ليذبح أحدهم:

فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذى نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه، وكان عبد الله أصغر بنى أبيه، كان هو والزبير وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عائذ، وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب إليه، وكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى (أبقى) وهو أبو رسول الله ﷺ .

عبد المطلب يهم بذبح عبد الله فتمنعه قريش:

فلما أخذ صاحب القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القداح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة (السكين) ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟

قال: أذبحه، فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تُعذر فيه ، لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟ وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة- وكان عبد الله ابن أخت القوم.

والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل ، وانطلق به إلى الحجاز فإن به عرافة لها تابع فسلها، وأنت على رأس أمرك: إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته، فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها بخيبر فركبوا حتى جاؤها ، فسألوها فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله؟ فرجعوا من عندها .

فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها ، فقالت لهم قد جاءنى الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل، وكانت كذلك، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها

بالقداح: فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم.

نجاة عبد الله بمائة من الإبل :

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله؟ فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل عشرين،

ولما بلغت مائة من الإبل خرجت القداح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب، فقال: لا والله، حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله، فخرج القدح على الإبل فى الأول والثانية والثالثة، فنحرت، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع ولاسبع.

امرأة من العرب عرضت نفسها على عبد الله:

ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله، فمر به ، على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى، وهى أخت ورقة بن نوفل، وهى عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبى، قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن!! قال: أنا مع أبى، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

وقيل إن هذه المرأة هى فاطمة بنت مر كانت من أجمل النساء، وكانت قرأت الكتب، فرأت نور النبوة فى وجهه.

زواج عبد الله بآمنة بنت وهب:

فخرج عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا.

آمنة بنت وهب تحمل برسول الله ﷺ :

وقع عبد الله على آمنة، فحملت برسول الله ﷺ ، وذهبت بالغُرة التى كانت فى جبينه مثل غرة الفرس، فكان رسول الله ﷺ أوسط قومه نسبا، وأعظمهم شرفا، من قبل أبيه وأمه ﷺ.

وكانت آمنة تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سمه محمدا، ورأت - حين حملت به- أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام

وفاة عبد الله أبى النبى ﷺ :

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ أن مات وأم رسول الله ﷺ حامل به.

قصة أصحاب الأخدود

قال تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ﴾ [البروج].

هذه الآيات الكريمة تحكى قصة أصحاب الأخدود، والأخدود هو الشق أو الحفرة العميقة فى الأرض. وهذه الآيات تندد بإجرام بعض الملوك الذين قست قلوبهم فكانت كالحجارة، وأشد قسوة، تندد بموقف غاية فى الإجرام والشناعة والقسوة والغلظة التى فاقت غلظة الجوارح والسباع.

تسجل هذه الآيات موقف أصحاب الأخدود من المؤمنين بالله واليوم الآخر، وصبرهم على الفتنة والتعذيب الذي وصل إلى منتهى الخزى والسفالة حيث أحرقوهم بالنار دون ذنب جنوه أو جرم اقترفوه.

تفنن الكافرون فى تعذيب المؤمنين ليردوهم عن دينهم فأبوا أن يتركوا دينهم فحفروا لهم الأخاديد ، وأشعلوا فيها نارا حامية، وألقوهم مكبلين (مقيدين) واحدا واحدا أمام أبنائهم وآبائهم، وجلسوا حول النار ينظرون إلى المؤمنين وهم يلقون فى النار يشمتون فيهم ويتمتعون بعذابهم وقتلهم وهم مصرين على إيمانهم وتوحيدهم.

صبروا على عذاب النار، وضحوا بأرواحهم في سبيل دينهم وعقيدتهم، واستخفوا بكل وعيد وتهديد، ولم تنخلع قلوبهم عندما أحضروا إلي النار ورأوها رأى عين وشاهدوا ضرامها ولهيبها وصوتها المزعج الذى يبث الرعب فى أقوى القلوب، لأنهم كانوا يعلمون أن نار الله أشد وأنكى للكافرين، وأنهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فآثروا الآخرة على الدنيا.

كان مشهدا مروعًا أن يعاينوا النار ويعلمون أنهم سيلقون فيها وأمام أهليهم وأولادهم، وفى مقابلة كفار غلاظ القلوب شامتين فيهم لا تأخذهم بهم رحمة ولا شفقة، وهم يسمعون حثيثها ويعانون من حرها. فما أشد ما كان ثباتهم وصبرهم واحتسابهم وشجاعتهم ويقينهم.

وأنزل الله السكينة فى قلوب المؤمنين، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وهون عليهم سكرات الموت، حتى قيل أن أرواح المؤمنين كانت تخرج من أجسادهم قبل إلقائهم فى النار.

وقد جاء فى بعض الأحاديث أن الشهيد يحس بضرب السيوف وطعن الرماح كما يحس من تشاكه شوكة.

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾ [البقرة]

وفى بداية سورة البروج يقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج والبروج هى

منازل الكواكب أو مداراتها، واليوم الموعود هو يوم القيامة وشاهد ومشهود، أى والمرئى والرائى أو ويوم الجمعة ويوم عرفة فأقسم الله تعالى بالمخلوقات العلوية والسفلية، والمشاهدة والغائبة، والمنظورة وغير المنظورة، فاستشهد الوجود كله ليشهد هذا الجرم الشنيع وليعلم حكمه على المجرمين.

"قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود"، أى النار الموقدة التى جمع لها كم هائل من الوقود من الأخشاب وغيرها. إذ هم عليها قعود، أى واذكر يامحمد منظرهم وهم قعود على النار أى الكفار يشاهدون عذاب المؤمنين وقتلهم. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ناظرين حاضرين. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وما كرهوا منهم إلا أنهم آمنوا بالله رب العالمين المتصف بالعزة أى المستغنى عن خلقه الحميد المستحق للثناء والحمد والمجد.

﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾، مالكها وخالقها ومدبر أمرها لا شريك له فى ملكها وتدبيرها.

﴿ والله على كل شئ شهيد ﴾، يرى كل شئ ويعلمه لا تخفى عليه خافية ويسجل كل شئ فى كتاب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾ [البروج]

أى إن الذين حرقوا المؤمنين وأرادوا حملهم على الكفر ونبذ الإيمان ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جنهم وهى نار الله الموقدة ولهم عذاب الحريق جزاء كفرهم ودعوتهم إلى الكفر وإيذاء المؤمنين والجزاء من جنس العمل.

تأمل إلى رحمة الله تعالى يتيح فرص التوبة حتى لأكابر المجرمين الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ولا يتوعد بالعذاب إلا من لم يتب.

ثم تذكر الآيات جزاء الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار وأن ذلك هو الفوز (النجاح) الكبير.

أن من أعظم النعم الخضرة والماء وهذا من جزاء المؤمنين يوم القيامة وانظر إلى قوله تعالى حيث ذكر الفعل آمنوا أنه قال وعملوا الصالحات وهو يثبت ما قاله علماء أهل السنة من أن الإيمان قول وعمل ونية وقولهم: الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان. وقول الرسول ﷺ الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل وقول البخارى وغيره إن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

كما قال تعالى : ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾.

كما أن القرآن مثانى كما قال تعالى : ﴿ولقد أنزلنا عليك سبعا من المثانى والقرآن العظيم﴾ أى يذكر النار ويذكر الجنة يذكر العقاب ويذكر معه الثواب بأسلوب الترغيب والترهيب وهذا هو الأسلوب الأمثل فى التربية والقيادة الإحسان إلى المحسن والعقاب للمسئ ، والسبع المثانى هى سورة الفاتحة وهى من قبيل عطف الخاص على العام فإن الفاتحة قرآن بل هى أم القرآن وأم الكتاب.

من هم أصحاب الأخدود :

أصحاب الأخدود كانوا معاصرين لملك جبار من ملوك اليمن وكان على دين اليهودية، وقد دخلت اليهودية اليمن بعد دخول بلقيس حاكم سبأ فى دين سليمان عليه السلام. ثم ارتد أهل اليمن إلى الشرك بعد أن تطاول عليهم الزمن ثم عادوا إلى اليهودية لما قابل تبع أحد ملوك اليمن حبرين يهوديين حذراه من

الإقدام على هدم الكعبة ونصحاه أن يعظمها ويكسوها وحذراه أن من يريد الكعبة بسوء قصمه الله وأهلكه ونهياه عن اتباع نصيحة بعض الأعراب الذين حرضاه على هدم الكعبة ليهلكه الله تعالى فعظم تبع الحبرين ودخل فى دينهما.

ثم دخلت النصرانية إلى اليمن على يد عالم صالح من علماء النصارى يسمى فيميون وهبه الله تعالى القدرة على علاج المرضى ولما جاء عيسى عليه السلام بالنصرانية كان لزاما على اليهود أن يدخلوا فى دينه وإلا أصبحوا كافرين، وأيضا عندما بعث محمد ﷺ كان لزاما على كل الناس وعلى سائر الجن أن يدخلوا فى دين الرسول ﷺ وإلا كانوا كافرين مخلدين فى النار.

وكان ملك اليمن المعاصر لهذه الأحداث والذى أحرق المؤمنين يسمى ذو نواس كان على دين اليهودية.

كان ذو نواس يتخذ ساحرا يستشيره فى بعض أموره، ويجعله من جلسائه، ولما كبر الساحر ووهن جسمه ورق عظمه وشاب شعره قال للملك: أيها الملك الكريم .. إننى كما ترى كبرت ووهن العظم منى، واشتعل رأسى شيباً، وأرى أن تبعث لى غلاما أعلمه السحر.

فبعث الملك إليه غلاما كى يعلمه السحر.

كان الغلام ذكيا نشيطا يحب المعرفة والعلم، وكان يأتى للساحر من أقصى المدينة ماشيا. وكان فى طريقه إلى الساحر يمر بصومعة صغيرة كانت تظللها بعض الأشجار والزروع.

وكان الغلام يرى فيها شيخا كبيرا يسقى زرعه، أو يطعم شانه، أو يسير بين الأشجار، وكان أحيانا يراه فى عبادته وصلاته.

كان الغلام يميل إلى هذا الراهب وقد انجذب إليه قلبه، فرغب فى الحديث إليه، والجلوس بين يديه والتلقى عنه، لذا كان الغلام يبطئ على الساحر، وهو

يجلس بجوار الصومعة يتأمل الراهب الشيخ، وكانت ملامح الراهب تنبئ عن رقة وسماحة.

وذات يوم، بينما كان الغلام سائرا فى طريقه إلى الساحر، نظر إلى الصومعة فرأى الراهب جالسا فى سكينة وخشوع مسندا رأسه إلى الجدار، فقال فى نفسه: إنى أشتاق إلى سماع هذا الشيخ الصامت.

وقف الغلام على باب الحديقة ونادى على الشيخ، بعد أن ألقى عليه التحية: هل أجد عندك ماء؟

التفت إليه الشيخ مرحبا به ودعاه إلى الدخول وقدم له الماء.

أحس الغلام براحة وسعادة وهو داخل إلي الراهب الذى لقيه بوجه باسم.

قال الغلام: هل تأذن لى فى الجلوس معك قليلا؟

رد الشيخ : نعم.. أهلا بك.

وجلس الغلام تحت شجرة مثمرة يستظل بها من حر الشمس بينما قام الشيخ إلى شجرة عنب مثمرة وأتى منها بقطف (عنقود) . ثم غسله، وقدمه للغلام.

قال الشيخ: هل تسكن قريبا من هذا الطريق؟

قال الغلام: كلا .. إننى أسكن فى أقصى المدينة، لكننى أمر كل صباح من هذا الطريق.

وأقبلت عنزة إلى الشيخ فداعبها ثم قال للغلام:

تكلم يا فتى إنى أصغى إليك.

الغلام: إنى أذهب كل يوم إلى شيخ كبير من جلساء الملك يعلمنى ، يعلمنى مما يعلم، ومنزله يقع فى آخر هذا الطريق.

الراهب : وهل تعلمت منه شيئا؟

الغلام: حدثنى عن الأبراج والنجوم، ووعدنى أن يعلمنى الكثير من أسرارها، وعن علاقتها بحياة الناس.

الشيخ: مر على فى كل يوم أعلمك عنها الكثير مما علمنى الله؟

الغلام : بدهشة: وأين الله؟

الشيخ : الله فى السماء يا بنى ، يرانا ولا نراه، وهو خالقنا ورازقنا، ومصرف أمورنا وهادينا فى البر والبحر.

الغلام : مدهوشا من هذا الكلام الذى لم يكن يسمعه من الساحر الذي كان يتوجه إلى الكواكب والنجوم وملوك الجان: يا أبت هل يرانا الله الآن ويسمعنا؟

الشيخ : نعم يا بنى، انه تعالى الذى أحيانا وهو الذى يميتنا، وسوف يحيينا من موتنا مرة أخرى ليحاسبنا على أعمالنا، فيكافئ المحسنين بالإحسان ويعذب الظالمين والأشرار.

الغلام : زدنى علما أيها الشيخ الكريم .. إننى أريد معرفة الله.

الشيخ : يا بنى قم الآن إلى أستاذك حتى لا تتأخر عليه وإن شاء الله نكمل حديثنا فى مرة قادمة.

وانصرف الغلام وهو يفكر فى كلام الراهب، وعندما دخل على الساحر رآها غاضبا ونهره وشتمه. ولم يرد الغلام وقد تعلم من الشيخ الراهب الكثير عن عظمة الكون، وروعة النجوم، وأن الذى خلقها ويسيرها بحكمة ودقة هو الله عز وجل.

وتعلم من الشيخ شيئا من الطب والعلاج بالأعشاب، وأدرك أن الذى

يمرض ويشفى هو الله سبحانه وتعالى. وكان الغلام قد أصبح يداوى المرضى. وكان الغلام إذا تأخر على الساحر ضربه الساحر، وإذا تأخر عن أهله ضربوه.

قال الراهب للغلام وهو جالس عنده ذات يوم وقد شكى له ما يلقى من الساحر ومن أهله: إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر. وهذا من الضرورات التى تبيح المحظورات، وذلك حتى يستطيع أني يتعلم أمور دينه، ويعرف باطل الساحر. ظل الغلام على هذه الحال مدة، يروح إلى الساحر، ويغدو إلى الراهب ويسمع من هذا وذاك، حتى كان يوم، بينما هو فى طريقه إلى الساحر إذ به يرى الناس فى خوف وفزع، ونظر فإذا دابة عظيمة وسط الطريق تمنع الناس من المرور.

فكر الغلام وقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب؟!

فأخذ حجرا وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس .. ثم رماها فقتلها، ومضى الناس. فأتى الراهب وأخبره بما حدث.

فقال الشيخ: أى بنى .. إنك اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ببركة إخلاصك لله، وحبك للحقيقة وإنك ستبتلى، فلا تدل على.

وذاع فى الناس خبر الغلام، وأنه يعالج الناس من الأمراض ويبرئ الأعمى والأبرص.

وسمع أحد جلساء الملك عن الغلام، وكان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة وقال له : أيها الفتى هذه الهدايا لك. ومثلها إن أنت شفيتنى من العمى.

الغلام : إننى لا أشفى أحدا، إن الذى يشفى الناس هو الله تعالى ، فإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك.

فآمن الرجل بالله تعالى،فدعا له الغلام، فشفاه الله وخرج يمشى مبصرا.

ثم أتى الرجل الملك وجلس إليه كما كان يجلس فسأله الملك : من رد عليك بصرك؟

قال الرجل : ربى.

انتفض الملك وصاح: من؟ . أولك رب غيرى؟

قال الرجل : نعم .. ربى وربك الله.

فأخذه الملك ودفعه إلى الجلاد، ولازال يعذبه ويضربه حتى دله على الغلام.

فجئ بالغلام المؤمن إلى قصر الملك، وعندما وقف أمامه سأله الملك أى بنى .. قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأعمى والأبرص وتفعل وتفعل.

فقال الغلام: إننى لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله تعالى. أشار الملك إلى أعوانه، فأخذوه وعذبوه حتى دل على الراهب. فجئ بالراهب، وأمره الملك أن يرجع عن دينه ، فأبى الراهب وأخذ يتمتم فى سره: لا إله إلا الله. أحد .. أحد.

فدعا الملك بالمنشار، فوضع فى مفرق رأسه بعد أن صلبوه.

وسأله : هل ترجع عن دينك؟

قال الراهب وهو يرفع بصره إلى السماء لا إله إلا الله .. أحد .. أحد، عليها أحيا ، وعليها أموت وعليها أبعث إن شاء الله.

أشار الملك إليهم إشارة، فهوى المنشار على رأسه فشقه حتى وقع شقاه (نصفاه) ، وتناثر لحمه وعظمه، وسالت دماؤه.

قال الملك : آتونى بالغلام. مجئ به.

قال له الملك : يا بنى ارجع عن دينك، إنك صغير.. ألا تعلم ما فعل بصاحبك العجوز.. ذلك الراهب الذى أغواك؟!

قال الغلام : كلا .. لن أعود إلى ملتكم بعد أن نجانى الله منها وإن الله- تعالى- هو ربى وربكم، وخالقى وخالقكم.

صاح الملك : اذهبوا به إلى الصحراء، واصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، اتركوه لحظة يفكر فى الأمر، فإن رجع عن دينه فاتركوه، وإلا فاطرحوه من فوق الجبل.

فذهب الحراس بالغلام، وصعدوا به الجبل، وهناك رفع الغلام عينيه إلى السماء وقال فى ضراعة : اللهم أكفنيهم بما شئت.

فارتجف الجبل كأن زلزالاً وقع، وسقطوا جميعا إلا الغلام وعاد إلى الملك ماشيا.

فلما رآه الملك دهش وقال : ما فعل أصحابك؟

قال : كفانيهم الله تعالى.

ردد الملك كلام الغلام فى ذهول كفانيهم الله تعالى ؟!

وأشار الملك إلى بعض رجاله غاضبا : اذهبوا به فاحملوه فى قارب وتوسطوا به البحر، فإن رجع إلى دينه فعودوا به ، وإلا فاقذفوه فى اليم ليكون طعاما للحيتان.

فذهبوا به إلى البحر، وانطلق القارب بعيدا عن الشاطئ حيث الموج الهائج، والقاع العميق ، وهناك رفع الغلام المؤمن عينيه إلى السماء وقال: اللهم أكفنيهم بما شئت .. أى أكفنى شرهم بالكيفية التى تشاؤها.

فجاءت موجة شديدة أكفأت القارب فوقعوا فى اليم، وغرقوا، وتشبث الغلام بلوح خشبى حتى قذفه الموج إلى الشاطئ وعاد إلى الملك ماشيا، فلما رآه الملك، لم يصدق عينيه وعقدت الدهشة لسانه، ولم يدر مايقول.

أشار الغلام بأصبعه وقال بثبات وثقة: إنك لست بقاتلى أيها الملك حتى تفعل ما أشير به.

قال الملك ساخرا: ما هو؟

قال: تجمع الناس فى مكان واحد وتصلبنى على جذع شجرة، ثم خذ سهما من كنانتى (جعبة السهام)، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل : بسم الله رب الغلام، ثم ارمنى ، فإذا فعلت ذلك .. قتلتنى وخلصت منى.

نظر الملك لمن حوله وقال : ألا تستمعون؟

اخرجوا إلى الناس واجمعوهم فى ساحة العرض ليشهدوا مقتل هذا الغلام الآبق.

واجتمع الناس بأمر الملك فى ساحة كبيرة ، فى زحام كأنه يوم الحشر، رجال ونساء وأطفال، الكل فى انتظار لحظة اعدام الغلام الصغير، الذى طالما تحدى الملك.

والغلام المؤمن يجلس ساكنا أمام جذع شجرة، متأملا هذا الحشد الكبير مع الناس، وضجيج وصخب كأنه سوق كبير.

وجاء موكب الملك فصفق الناس ، وبسرعة صلب الغلام على جذع شجرة حتى يراه الملأ.

ووضع الملك السهم فى القوس، ورفعه صوب الغلام، وصاح الحراس: سكوتا.. سكوتا أيها الناس.

وبصوت عال صاح الملك : بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، وهو يردد: لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله.

نظر الناس بعضهم إلى بعض وصاحوا: آمنا برب الغلام.

أمنا برب الغلام.

وركب الملك جواده وعاد إلى قصره مسرورا، وقد ظن أنه استراح من هم هذا الغلام العنيد.

ولم تمر ساعة حتى دخل رجال الملك عليه فى هلع وجزع فصاح فيهم : ما شأنكم؟!

قالوا: أرأيت ما كنت تحذر ، قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس برب الغلام.

انتفض الملك وهو يصيح غاضبا: ماذا؟ آمن الناس برب الغلام؟!.. كيف .. إنه قتل أمام أعينهم حتى يزدجروا.. ياله من غلام ماكر والله لأجعلنهم عبرة لمن يعتبر.. اسمعوا جيدا. قال الرجال : سمعا وطاعة أيها الملك.

الملك: احفروا أخدودا عميقا فى الأرض، وأججوا النيران فيه، أريدها نارا حامية وهائلة، ومن لم يرجع عن دينه فألقوه فيها، ولا تستثنوا أحداً.

وحفر الرجال الأخدود وأضرمت النيران ، وأقيد الناس بالقوة، وحشرهم الحراس أمام الأخدود، والنار تلفح الوجوه، ويسمع لها تغيظا وزفيرا.

كان الأطفال يصرخون ، والناس تلقى فى النار واحدا تلو الواحد. وجاء الدور على إمرأة مؤمنة تحمل صغيرها، وتضمه إلي صدرها بأعين دامعة ونفس ملتاعة(حزينة) ودفعها الحراس إلى النيران وهى تمشى بخطى مترددة ، وتنظر إلى الغلام الرضيع بلوعة وحسرة. وعلى حافة الأخدود تسمرت وتقاعست أن تقع فى النار.

فقال لها الغلام الرضيع: يا أماه.. اصبرى فإنك على الحق. وهنا جف دمعها من الدهشة، وضمت صغيرها إلى صدرها وهى تردد: آمنت بالله الذى لا إله إلا هو. وألقوها فى السعير.

وهذه القصة تروى بطولة طائفة من المؤمنين واجهوا أعتى الجبابرة بقلوب ثابتة.

وعن مقاتل : كان الذين اتخذوا الأخاديد فى ثلاث من البلاد بنجران وبالشام وبفارس - أما الذى بالشام : فانطانيوس الرومى ، وأما الذى بفارس فهو بختنصر. وأما الذى بنجران فيوسف ذو نواس؟ أ.هـ.

وذكر ابن إسحاق وغيره من المؤرخين أن اسم الراهب فيميون، واسمي الغلام عبد الله بن الثامر.

وأصحاب الأخدود المذكورون فى سورة البروج كانوا بنجران باليمن. ولعل قصة أصحاب الأخدود قد تكررت، وقد فعل نفس الشئ مع رسول الله ونبيه إبراهيم عليه السلام قبل أصحاب الأخدود المشار إليهم فى هذه القصة.

والقصة التى رويناها فى شكل حوار طويل ورد ذكرها فى حديث للإمام مسلم فى قصة مختصرة أخرجها مسلم من حديث صهيب الرومى عن الرسول ﷺ .

قصة أصحاب الفيل

قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل].

نزلت هذه السورة - سورة الفيل - فى أبرهة الأشرم الذى حاول هدم الكعبة. وساق الأفيال مع جيشه لإتمام هذه الجريمة النكراء.

نبذة تاريخية

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يخاف من القط، وقد احتال بعض أمراء الحروب فى احدى المعارك التى وقعت بينهم وبين الهنود باحضار السنانير - القطط - إلى ساحة المعركة فنفرت - هربت - الفيلة.

وقد كان الهنود أيضا يستخدوم الأفيال فى حروبهم لكثرة الأفيال فى الهند. فهناك ما يعرف بالأفيال الأفريقية والأفيال الآسيوية.

بنى أبرهة الحبشى الذى كان يحتل اليمن قبل الإسلام - بنى كنيسة بصنعاء لم ير مثلها فى زمانها بشئ من الأرض، وكتب إلى النجاشى إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

وكان أبرهة يسخر أهل اليمن فى بناء الكنيسة، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر

من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًا واتساعها باهرًا.

فلما هلك - مات - وتفرقت الحبشة كان لا يتعرض أحد لها حتى كان عصر أبو العباس السفاح الخليفة العباسى الأول فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فتقضدها حجرا حجرا ودرست - انمحت - آثارها.

رجل من العرب يحدث فى القليس :

قال ابن إسحاق راوى السيرة : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى غضب رجل من النسأة من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام إلى الحل أى يغيرون مواعيد الأشهر الحرم، ألى الحل بمكة أيام الموسم .. قال : فخرج الكنانى حتى أتى القليس فقعد فيه - أى تغوط - حيث لايراه أحد ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيها أى أنه ليس لذلك بأهل فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسير من فوره إلى البيت ويهدمه.

خروج أبرهة يريد الكعبة المشرفة :

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفزعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (يُسمى) ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام.

وما يريده من هدمه وإخرابه، فأجابه من أجاباه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر أصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتى له أسيرا ، فلما أراد قتله قال

له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من القتل، فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق، وكان أبرهة رجلا حليما ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ماخرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم – وهما شهران وناهس – بالسمع والطاعة،

فخلى سبيله وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب ابن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد – يعنون اللات – إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق : واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ، قال: بعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرجمت قبره العرب فهو القبر الذى يرجم الناس بالغمس.

وقد كان من قوم ثمود رجل يسمى أبو رغال كان فى الكعبة فلما خرج من الحرم أصابته الصاعقة التى أصابت ثمود وأبو رغال هذا هو أبو قبيلة ثقيف، وقد توافق الاسمان.

فلما نزل أبرهة بالغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها– فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميدى إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم.

ثم قال له : إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم، فإن هو لم يرد حربى فائتنى به، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها؟ فقيل له عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة .

هذا بيت الله الحرام وخليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فانطلق معى إليه فانه قد أمرنى أن آتيك بك، فانطلق معه عبد المطلك ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر – وكان صديقا له – حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له : ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟

فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتل غدوا أو عشيا ؟ ماعندى غناء فى شئ مما بك إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى ؟ فأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ان قدر على ذلك ،

فقال : حسبى، فبعث ذو نفر إلى أنيس ، فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة (زمزم) يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن عليه وانفعه عنده بما استطعت، قال : افعل، فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكة وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلمك فى حاجته، فأذن له أبرهة.

عبد المطلب يقابل أبرهة :

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فلما رآه أبرهة أجله

(عظمه) وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما قال له ذلك قال أبرهة، لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين أبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟ فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه، فقال : ماكان ليمتنع منى، قال : أنت وذاك، فرد على عبد المطلب إبله.

عبد المطلب يأمر قريشا بالخروج من مكة:

فلما انصرف عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هـم إن العبد يمنــ	ــع رحله فامنع رحالك
لا يغلـــبن صليبـــهم	ومحـالهم أبدا محــالك
إن كنت تاركهم وقبـ	ـلتنا فأمر ما بـدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شغف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل"

أبرهة يتهيأ للهجوم على الكعبة :

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وعبئ جيشه ، وكان اسم الفيل محمودا، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل ابن حبيب حتى قام إلى جنب

الفيل ثم أخذ بأذنه فقال: أبرك محمود وارجع راشدا من حيث أتيت، فإنك فى بلد الله الحرام وأرسل أذنه، فبرك الفيل.

الفيل يرفض هدم الكعبة:

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين(خطاف) فنخسوه بالحديد ليقوم فأبى، فوجوه راجعا إلى اليمن (اتجاه اليمن) فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، فحجر فى منقاره وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

هلاك أبرهة وجنوده :

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تبث قيحا ودما حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع (انشق) صدره عن قلبه.

تفسير سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾

ألم تعلم ما فعله ربك يا محمد بأصحاب الفيل أبرهة الحبشى الأشرم وجنوده.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾

وكيف جعل الله تدبيرهم فى ضلال وخسران وفشل ذريع وخيبة فلم يحققوا هدفهم فى هدم الكعبة.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

والأبابيل الجماعات.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾

ترميهم بحجارة شديدة الصلابة.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

فجعلهم كعصف مأكول . أى كالتبن .

وعن ابن عباس : كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب ..، وعن عكرمة: كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضرا.

وروى ابن أبى حاتم :

لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرا انشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين فى رجليه وحجرا فى منقاره، قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت فألقت مافى رجليها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شئ من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحا شديدة فاضرمت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعا.

ولكن بعض الجنود لم يمت على الفور وإنما مات بعد برهة من الزمن.

وروى ابن إسحاق بسنده إلى عائشة رضوان الله عليها قالت:

لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان أ.هـ.

واحتمل السيل جثثهم فألقاها فى البحر، وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانية وثمانمائة (٨٨٦) من تاريخ ذى القرنين.

وكان ذلك على الأرجح عام مولد النبى ﷺ والذى يوافق على أشهر الروايات عام ٥٧٠ ميلادية أى من ميلاد المسيح عليه السلام.

فلما هلك أبرهة ملك الحبشة بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده مسروق بن أبرهة وهو آخر ملوكهم. وهو الذى انتزع سيف بن ذى يزين الحميرى الملك من يده بالجيش الذى قدم بهم من عند كسرى أنو شروان.

سبب احتلال الحبشة لليمن :

كما علمتم من قصة أصحاب الأخدود فإن ملك اليمن ذو نواس، وكان يهوديا يكره دين النصرانية، وكان يضيق صدره ويطيش عقله عندما يسمع خبرا عن انتشار النصرانية - دين المسيح - عليه السلام - وعن أتباع النصرانية بنجران الذين يزيدون عددا، ويتحلون بمكارم الأخلاق من التسامح والرحمة والمحبة. ويؤمنون بأن الله واحد لاشريك له.

وكان ذو نواس يحرق هؤلاء النصارى الذين تركوا شريعة اليهودية فيلقى بهم فى الأخاديد ويحرقهم بالنار.

وفر نفر من هؤلاء النصارى بدينهم إلى النجاشى ملك الحبشة، وكان النجاشى إذ ذاك نصيرا للنصرانية ، يدين بها ويعتنقها. وعندما سمع بما فعله ذو نواس بالمؤمنين هب لنجدتهم، والثأر لهم، فجهز جيشا قويا كثير العدد والعدة،

وانطلق به إلى أرض اليمن، وهناك التقى الجمعان، ودارت حرب طاحنة - فذو نواس يحارب على أرضه، والنجاشى يثير فى جنده روح الإنتقام لإخوانهم النصارى الذين أُحْرقوا، ويحثهم على الثبات ومواصلة القتال. وتتابعت الهزائم على ذى نواس وأتباعه حتى أسلمت اليمن أخيرا إلى النجاشى، وأصبحت ولاية تابعة لنصارى الحبشة.

ودارت الأيام وأصبح أبرهة ملكا على الحبشة بعد أن بارز ملكها أرياض وقتله بمساعدة أحد أعوانه ، ورأى الناس يهجرون الكنائس ويشدون الرحال قاصدين بيت الله الحرام.

وأراد أبرهة أن يغير هذا الحال ليعيد الحماس لدين النصرانية ويرضى النجاشى الذي غضب عليه لقتله أرياض.

فسأل أعوانه : أين يذهب هؤلاء الناس؟

فقالوا له : يحجون إلى البيت الحرام بمكة.

فقال بدهشة : وما هذا البيت ؟

قالوا : بيت عتيق من حجارة.

فقال : لأبنين للناس خيرا منه.

وأمر أبرهة رجاله ببناء بيت من رخام ووشاه بالذهب والفضة، ودهنه بالمسك والعنبر، وجعل الأنوار تتلألأ فيه فكان هذا البيت كنيسة كبيرة كأنها درة عظيمة.

وأمر أبرهة الناس أن يحجوا إلى هذه الكنيسة بدلا من شد الرحال إلى البيت العتيق الذى بمكة وظن أن فخامة بناء القليس سيصرف حج العرب إليها. لكن الناس لم تعظم هذه الكنيسة ولم تلتفت إليها وظلوا على عادتهم يقصدون الكعبة المشرفة.

وغضب أبرهة، وعز عليه أن ينصرف الناس عن البيت الذى بناه وزينه وكلفه الكثير، وراح يلح على الناس للصلاة فى الكنيسة، وأن يقدموا القرابين والذبائح إليها بدلا من مشقة السفر إلى مكة. ولم يستجب له إلا القليل، حتى جاء اليوم الذى تسلل فيه أحد العرب وأحدث النجاسة داخل القليس بجوار المذبح وكان أن عزم أبرهة على هدم بيت الله الحرام.

نتائج غزو أبرهة للبيت الحرام :

كان هلاك أصحاب الفيل نعمة من نعم الله الكبرى على قريش، فقد صان الله بيته الحرام عن شرهم وأبادهم، فاكبر العرب قريشا، عظموها وهابوها) وعظم شأنهم عند كبيرهم وصغيرهم، ولقى أهل مكة من قاصيهم (أبعدهم) ودانيهم (أقربهم) ترحيبا وإكراما وتقديرا فى كل مكان نزلوا به.

يقول تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

ولقد كانت هذه الحادثة التى سجلها القرآن فى هذه السورة تذكيرا لقريش بهذا النبى العظيم الذى أخبرهم أهل الكتاب بزمن مولده وزمن بعثته، وحدثوهم عن صفاته وأخلاقه ومنهجه في دعوته إلي الله، فأرخوا لمولده بعام الفيل ولم يعرفوا أنه النبى المنتظر. وذلك لأن النبى ﷺ قد ولد يتيما فكفله جده عبد المطلب سيد قريش، فارتبطت ولادته بحادثة الفيل ، لأنه ابن سيدهم أولا، ولأن جده كان له فضل كبير فى حمايتهم من بطش أبرهة الأشرم وجيشه، إذ أمرهم أن يتحصنوا منه فى شعاب الجبال، ويتركوا مكة يحرسها الله عز وجل ويحمى بيتهبقدرته.

وقد كان هلاك أصحاب الفيل إرهاصة (مقدمة) لبعثة النبى ﷺ، ولأن الأمة التى كانت وقتها كانت أمة شرك فلم تكلف بالدفاع عن الكعبة وتكفل ربنا سبحانه وتعالى بحفظ بيته والدفاع عنه.

وكان هلاك أبرهة وجنوده درسا عظيما من تلك الدروس التى يتلقاها الجبابرة فى كل زمان ومكان على مدى التاريخ لعلهم يعتبروا ويعتبر من يساندهم ويؤيدهم وينافقهم.

كتلك الدروس التى تلقتها الأمم مما حل بقوم نوح وعاد وثمود وفرعون ذى الأوتاد وجالوت وغيرهم من الجبابرة على مر الزمان.

والكعبة المشرفة لها تاريخ حافل فهى بيت الله الحرام قيل أن أول من بناها الملائكة ثم آدم ثم إبراهيم والحج إليها ركن من أركان الإسلام وشعيرة من شعائر دين إبراهيم الخليل عليه السلام وجميع الأنبياء حج إليها والحج إلى الكعبة هو الركن الخامس من أركان الإسلام لمن استطاع إليه سبيلا وفيها مقام إبراهيم من دخلها كان آمنا وفيها الحجر الأسود يمين الله فى الأرض.

قال تعالى :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج]

رزقنا الله تعالى حج بيته الحرام.

ومعنى يمين الله فى الأرض أى يشهد لمن قبله أو استلمه أو أشار إليه يشهد له عند الله يوم القيامة.

روايات حول

الكعبة قبل إبراهيم (١)

قام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة، بعد نزوحهما من فلسطين إلى بلاد الحجاز، بأمر من الله سبحانه وتعالى. وهو ما يؤكده القرآن الكريم، ويجمع عليه المؤرخون. ولكن بعض المؤرخين يذكروا بعض الروايات التى تدور حول تاريخ بناء الكعبة، فيجعلون لتاريخ الكعبة أصولا وجذوراً تمتد إلى ما قبل عهد إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام.

وهناك اختلاف بين بعض الروايات وتناقض.

ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة ، لا نرى بأساً من أن نذكر بعض هذه الروايات التى حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين ، فقد أصبحت جزءاً من تواريخهم ، وهى محط أنظار القراء فى كل زمان .

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ، ومنهم من نسب بناءها إلى آدم عليه السلام أو إلى ابنه (شيث) .

ولكن هذه الروايات لا تستند إلى مصدر أصلى قديم . وجميع الشواهد تؤكد أن وادى مكة قبل نزوح إبراهيم وإسماعيل كان غير ذى زرع ، لا يسكنه أحد ، لعدم توافر وسائل الحياة .

أما المؤرخون الذين ينسبون البيت إلى الملائكة ، فيذكرون أن الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم : (إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) .

---

(١) الكعبة على مر العصور ، د/ على حسن الخربوطلى ـ دار المعارف .

وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة وأعرض عنهم ، فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً من هذا الغضب . وطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك ، ربنا معذرة إليك ، نستغفرك ونتوب إليك» . فنظر الله عز وجل إليهم ، ونزلت الرحمة عليهم ، ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتًا هو البيت المعمور ، ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا البيت ، ودعوا العرش . فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق .

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة، كما يذكر المؤرخون، من سكان الأرض، أن يبنوا فى الأرض بيتًا على مثال البيت المعمور، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. فبينه الملائكة قبل خلق آدم بألفى عام، وكانوا يحجون إليه. فلما حج آدم إلى هذا البيت قالت الملائكة له : «بر حجك يا آدم حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام» .

وروى العمرى فى كتابه «مسالك الأبصار»(١) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : «خلق الله قبل الأرض بألفى سنة ، وكان عرشه على الماء على زبدة بيضاء ، فدحيت الأرض من تحته» ، وأسند العمرى هذه الرواية أيضاً إلى مجاهد وقتادة والسدّى .

وأسند العمرى إلى قتادة أنه قال : «ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم ، وحين أهبط قال الله : أهبط معك بيتى يطاف به كما يطاف حول عرشى . فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمن الطوفان ، رفعه الله وطهره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض ، فصار معموراً فى السماء. ثم إن إبراهيم تتبع منه أثراً بعد ذلك ، فبناه على أساس قديم كان قبله»(٢) .

---

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ١ ص٩٣ (طبعة دار الكتب ١٩٢٤).

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٣ .

وقال عطاء بن أبى رباح : وجه آدم إلى بكة[1] حين استوحش، فشكا ذلك إلى الله عز وجل فى دعائه . فلما انتهى إلى بكة ، أنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن.

فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان ، فرُفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله عز وجل إبراهيم فبناه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ ويسند الغمرى هذه الرواية إلى أبى عروبة.

وروى أبو الوليد الأرزقى بسنده عن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب ، قال : إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكة ، فقال ابنوا لى بناء فى الأرض تمثال البيت وقدره. وأمر الله منْ فى الأرض من خلقه أن يطوفوا به، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. قال : وكان هذا قبل خلق آدم، عليه السلام، والله أعلم[2] .

ومن الروايات التى تدور حول بناء آدم البيت ، رواية تفرد ابن لهيعة فى نسبتها إلى الرسول ، أنه قال : «بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتًا ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل ، حتى إذا أجابه الماء ، نودى من تحته : حسبك يا آدم . فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد فيه».

وينسب ابن قتيبة فى كتابه «المعارف»[3] بناء الكعبة إلى شيث ابن آدم ، فروى : «كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه ،

---

(١) أى مكة .

(٢) مسالك الأبصار جـ١ ص ٩٤ .

(٣) المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ١٩٣٤) .

وكان وصى أبيه وولى عهده ، وهو الذى ولد البشر كلهم ، إليه انتهى أنساب الناس، وهو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة» .

ويروى العمرى[1] : «وقيل إن آدم أول من بناها ـ أى الكعبة ـ وقيل شيث ابن آدم ، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء ، ويطوف بها آدم».

ولكن العمرى بعد أن عدّد روايات كثيرة لا يجزم إذا كان بناء الكعبة قبل إبراهيم كان على يد الملائكة أو على يد آدم ، أو على يد ابنه شيث.

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون أقدمون ، ولا نرى بأساً من ذكر بعضها ، فيذكر المؤرخ المسعودى أن قوم عاد لما أصابهم القحط «وفدوا إلى مكة يستسقون ، وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل أن يبدأ بناءها إبراهيم ، وكان ربوة حمراء» ، وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين ، فيذهبون إلى أنه كان فى مكان الكعبة معبد قديم للعماليق ، اندثر واختفى ، قبل قدوم إبراهيم إلى بلاد الحجاز ، مما جعل هذه البلاد موضع تقديس ، حتى إن المصرين القدماء سموا بلاد الحجاز «البلاد المقدسة» .

قبل الكعبة، كان لبعض الأنبياء بيوت ، فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل إبراهيم ، وكان لإبراهيم بيوت فى وطنه ، ولكن الكعبة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد ، وفيه آيات بينات .

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤ .

وصف الكعبة

وصف العمرى للكعبة :

وصف العمرى الكعبة فى كتابه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) ، كما رآها حينما أدّى فريضة الحج سنة ٧٣٨ هـ ، فقال : «فاعلم أن الكعبة ، البيت الحرام ، مربعة البنيان فى وسط المسجد .

ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعاً ، وعرض الجدار ، وجهتها الآن، أربعة وعشرون ذراعاً، وهو الذى فيه بابها، وعرض مؤخرها مثل ، وعرض جدارها الذى يلى اليمن ، وهو فيما بين الركن اليمانى والركن العراقى ، وهو الذى فيه الحجر الأسود ، عشرون ذراعاً . وإلى وسط هذا الجدار كان يصلى النبى ﷺ قبل هجرته إلى المدينة ، وعرض جدارها الذى يلى الشام ، وهو الذى فيما بين الركن الشامى والركن الغربى واحد وعشرون ذراعاً ، وميزاب الكعبة على وسطه يسكب فى الحجر . ومن أصل هذا الجدار إلى أقصى الجدار ستة عشر ذراعاً.

وعرض باب الحجر الشامى خمسة أذرع إلا شيئاً يسيراً ، وعرض بابه الغربى ستة أذرع إلا شيئاً يسيراً ، وجدار الحجر مدور من بابه الشامى إلى بابه الغربى كالطيلسان ، وعرضه ذراع وارتفاعه من الأرض أربعة أشبار .

والحجر الأسود فى الركن العراقى المقابل لزمزم وهو على سبعة أشبار من الكعبة ، وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض ، وعلوّه ستة أذرع ، وعرضه أربعة أذرع.

وما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع ، ويسمى هذا الموضع الملتزم ، لأن رسول الله ﷺ حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه ثم التفت فرأى عمر فقال : ها هنا تسكب العبرات .

ومن الباب إلى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه ، وأنزل الله التوبة وهو موضع الخلوق ، ومن إزار الكعبة ، أزيد من سبعة أذرع ، وكان هناك موضع مقام إبراهيم .

وبين موضع الخلوق - وهو مصلى آدم عليه السلام - وبين الركن الشامى ثمانية أذرع ، ومن الركن الشامى إلى اللوح المرمر المنقوش فى الحجر الذى بُنى هناك ابن الزبير ركن إبراهيم ، وهو على قواعد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع.

وفيما بين الحجر إلى مقام إبراهيم خمسة وعشرون ذراعاً ، ويسمى ذلك الحطيم ، لأنه يحطم الذنوب أى يسقطها ... وفيما بين الركن العراقى - وهو الذى فيه الحجر الأسود - إلى مصلى النبى ﷺ قبل هجرته إلى المدينة عشرة أذرع ... وبين الركن اليمانى وبين الباب المسدود فى ظهر الكعبة أربعة أذرع ، ويسمى ذلك الموضع المستجار من الذنوب.

«وعرض الباب خمسة أذرع ، وارتفاعه سبعة أذرع . وبينه وبين الركن الغربى ثلاثة عشر ذراعاً ، وبين الركن الغربى وآخر قواعد إبراهيم - وهناك اللوح المرمر المنقوش - أزيد من سبعة أذرع وإلى هناك بنى ابن الزبير»(1).

وصف ابن بطوطة للكعبة :

كان مولد الرّحالة ابن بطوطة فى سنة ١٣٠٤م وتوفى سنة ١٣٧٧م ، وقد زار مكة خلال رحلته الأولى (١٣٢٥ - ١٣٤٩م) ، ووصف الكعبة كما شاهدها ، فقال : «والكعبة ماثلة فى وسط المسجد ، وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاثة ثمانية وعشرون ذراعاً ، من الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعاً ، وعرض صفحتها التى من الركن

---

١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٢ - ١٠٤ .

العراقى إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى إلى الركن الشامى.

وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى إلى الركن العراقى ، وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً ، والطواف إنما خارج الحجر .

وبناؤها بالحجارة الصمّ السمر ، وقد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشدّه ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان . وباب الكعبة المعظمة فى الصفح[1] الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار .

وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أمتار وهو مصفح بصفائح الفضة ، بديع الصنعة ، وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة ، ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله ﷺ .

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزّع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى .

وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى .

---

(١) الصفح : الجهة .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض ، وهى تتلألأ عليها نوراً وإشراقاً ، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض .

ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذى خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم.

ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف .

ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران ، وتجد الحمام يطير إلى أعلى الحرم كله ، فإذا اقترب من الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها »(١).

وصف الكعبة :

شكل الكعبة مربع تقريبا ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته ١٠ أمتار و١٠ سنتيمترات، وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنى عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليها بسلم كسلالم المنابر .

وسلمها الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع فى مكانه منها إلا إذا فتح للزائرين وفى الاحتفالات الكبرى وهى لا تزيد عن خمسة عشرة مرّة فى السنة .

وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرض المطاف .

يسمى العرب زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها ، فيسمى

---

(١) انظر رحلة ابن بطوطة جـ١ ص (١٠٥ - ١٠٦) .

الشمالى بالركن العراقى ، والغربى ، والقبلى باليمانى ، والشرقى بالأسود لأن فيه الحجر الأسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير منتظم ، لونه أسود ضارب إلى الحمرة، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه، قطره نحو ٣٠ سنتيمتراً يحيط به اطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات .

والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف ، فى دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها ، فغيره السلطان سليمان سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة ، وأبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بآخر من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية .

وفى سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب يوجد الحطيم ، وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت الشمالية والغربية . ويبعدان عنهما بمترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف متر ، وهو مبطن بالرخام المنقوش وفى محيطه من أعلاه كتابة محفورة .

والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمتراً والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت يسمونه حجر إسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى الكعبة فى بناء إبراهيم ، ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به .

أما شكل الكعبة من الداخل ، فمربع مشطور الزاوية الشمالية وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها ، وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود عليها مقاصير وترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من جهة أخرى .

وهذه الأعمدة موجودة من عهد عبد الله بن الزبير وهى غالية القيمة جداً.

ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جلّ جلاله) . وفى قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبى ﷺ ، ويحيط ببناء البيت من الداخل هامش من الرخام على ارتفاع نحو مترين .

وداخل البيت ألواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئًا من العمارة . وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

تفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال، وفى الحادى عشر منه للنساء، وفى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ، وتفتح فى العشرين من المحرم لتغسل ، وفى أول جمعة من رجب للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى ليلة النصف من شعبان ، وفى يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى آخر جمعة من رمضان أيضاً .

وفى نصف ذى القعدة للرجال وفى تاليه للنساء، وفى عشرين منه لغسلها، وفى الثامن والعشرين منه لإحرامها ، أى بإحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المطاف ، وتفتح فى موسم الحج لمن يزورها من الحجاج ، وتفتح أيضاً فى نحو العشرين من ذى الحجة لغسلها .

ولغسل الكعبة احتفال عظيم ، ويحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، ثم يضمخ أرضها وحوائطها على ارتفاع الأيدى بأنواع الأدهان العطرية ، وفى أثناء ذلك يكون البخور متصاعداً فيها .

ثم يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى استخدمها فى غسل الكعبة، فيتهالك الوقفون عليها، فمن حصل على واحدة عدّها من الذخائر التى لا تقدر بمال(١).

عدد مرات بناء الكعبة (٢)

لأهمية الكعبة المشرفة فى نفوس المسلمين فى كل مكان ولكونها قبلتهم فى الصلوات ، ومتجههم فى الدعوات ، وعندها تُسكب العَبَرات . تعاقب عليها الهدموالبناء.

ولكن ما عدد مرات التى بنيت فيها الكعبة .

سواء أكان هذا البناء .

بناءً مبدئيًا كما حدث فى أول مرة - بناء الملائكة عليهم السلام .

أم على القواعد الأولى كما حدث فى بناء إبراهيم عليه السلام .

أو نتيجة إحراق كما حدث فى المرة التى بنتها قريش قبل مبعث الرسول ﷺ ؟

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ٨ ص١٤٦ .

(٢) وصف الكعبة المشرفة - عثمان إبراهيم عامر - دار البخارى .

حصر عدد مرات بناء الكعبة :

ذكر السهيلى فى الروض الأنف ما نصه :

كان بناؤها فى الدهر خمس مرات :

الأولى : حين بناها شيث بن آدم .

الثانية : حين بناها إبراهيم - عليه السلام - على القواعد الأولى .

الثالثة : حين بنتها قريش قبل الإسلام .

الرابعة : حين احترقت فهدمها عبد الله بن الزبير حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم عليه السلام وبناها .

الخامسة : فى عهد عبد الملك بن مروان عندما هدم ما بناه ابن الزبير وبناها(١).

وقد أوصلها الفاسى إلى عشر مرات فزاد عن السهيلى خمساً .

وجاء فى كتاب شفاء الغرام ما نصه : (لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات ، وقد اختلف فى عدد بنائها ، ويتحصل من مجموع ما قبل فى ذلك أنها بنيت عشر مرات :

منها : بناء الملائكة عليهم السلام .

ومنها : بناء آدم عليه السلام .

ومنها : بناء أولاده.

ومنها : بناء الخليل عليه السلام.

ومنها : بناء العمالقة .

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ص١٢٧ جـ١ ، وإعلام الساجد أحكام المساجد للزركشى ص٤٧ .

ومنها : بناء جُرهم .

ومنها : بناء قُصى بن كلاب .

ومنها : بناء قريش .

ومنها : بناء عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنهما .

ومنها : بناء الحجاج بن يوسف الثقفى(١).

وجاء فى كتاب اخبار الكرام ما نصه : (اعلم أن فى عدد بناء الكعبة الشريفة خلافاً شديداً ويتحصل من مجموعها أنها بنيت إحدى عشرة مرة) :

الأولى : بناء الملائكة .

الثانية : بناء آدم ، وقيل إنه قبل بناء الملائكة .

الثالثة : بناء أولاده (يعنى أولاد آدم عليه السلام) .

الرابعة : بناء الخليل عليه السلام .

وعن على رضى الله عنه : أنه أول من بنى البيت وبه جزم ابن كثير فى تفسيره وتاريخه .

الخامسة : بناء جُرهم .

السابعة : بناء قصى بن كلاب .

الثامنة : بناء قريش .

التاسعة : بناء ابن الزبير .

العاشرة : بناء الحجاج بن يوسف الثقفى .

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : ص٤٠٢ جـ١ ، وحاشية الجمل على تفسير الجلالين ص١٠٦ جـ١ .

الحادية عشرة : بناء السلطان مراد .

ويتحصل من كلام السهيلى ، والفاسى والمكى .

أن السهيلى يجعلها خمساً فقط .

بينما الفاسى يجعلها عشراً .

بينما المكى يجعلها إحدى عشر .

كما يلاحظ أيضاً :

أن المرات الخمس للسهيلى تندرج تحت مرات الفاسى العشرة فهى خمسة من ضمنها .

والمرات الإحدى عشر للمكى تتدرج تحتها العشرة للفاسى .

الرسول والكعبة [1]

تصدع الكعبة :

حينما كان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره[2] ، اشترك فى حادث جليل أثار اهتمام جميع العرب فى أرجاء الجزيرة العربية ، وهو إعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أمر الكعبة ، فقد كانت بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلنا نهبًا للصوص ، الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التى كان القريشيون يحتفظون بها فى جوفها .

---

(١) الكعبة على مر العصور - د/ على حسنى الخربوطلى - دار المعارف .

(٢) ابن هشام جـ١ ص ٢٠٤ ، وذكر العمرى «مسالك الأبار» جـ١ ص٦٤ أن عمر الرسول كان ٢٥ سنة أو ٣٥ سنة .

كان ارتفاع الكعبة تسع أذرع أى نحواً من سبعة أمتار ، ولم يكن لها سقف، وكان بابها بمستوى الأرض فيدخلها من شاء ، ويلقى فيها الناذرون نذورهم من حلىّ ومتاع وطيب ونقود فتقع فى خزانة الكعبة التى كانت بمثابة صندوق للنذور ، وهى بئر عند بابها على يمين الداخل .

تعرضت مكة لعدة سيول فى أوقات متفاوتة ، وحدث أن نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة، فانحدر نحو الكعبة وصدّع جدرانها، وأصبحت قريش مضطرة إلى الإقدام على اصلاح ما أفسدته السيول ، وكانت من قبل تجد حرجاً فى إعادة بنائها أو ادخال اصلاحات عليها .

وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم باصلاح الكعبة ، فقد رمى البحر بسفينة إلى جدّة ، كانت لأحد تجار الروم ، وكانت هذه السفينة قد بعث بها ملك الروم من مصر إلى الحبشة ليقوم ركابها ببناء كنيسة هناك[1] . وخرج وفد قريشى برياسة الوليد بن المغيرة إلى جدّة لشراء هذه السفينة .

وكان فى مكة رجل نجار نصرانى يدعى ياقوم (أو باقول فى بعض الروايات) ، ورأت قريش أن تستعين بخبرته .

ويروى ابن هشام[2] أنه «كانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كان يطرح فيها ما يهدى لها كل سنة، فتشرّق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزوزأت وكشت وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها .

فبينما هى ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة ، كما كانت ، بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل دقيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية» .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٠٥ .

بدأت قريش عملية الهدم والبناء ، وكان أوّل من بدأ الهدم عائذ ابن مروان بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حجراً ، فوثب بين يديه ، حتى رجع إلى موضعه - كما يروى ابن هشام(١) - فقال عائذ : يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس.

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة على أن يتولى كل فريق الهدم والبناء، ولكنهم ترددوا فى الاقدام على الهدم خشية أن يلحقهم الأذى، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمه ، ثم أخذ المعول ، وبدأ الهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين .

وانتظر الناس ليلة، وقالوا : ننظر ، فإذا أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شئ ، فقد رضى الله صنعنا ، فهدمنا .

عاود القريشيون الهدم فى اليوم التالى ، وانتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أى أساس إبراهيم عليه السلام ، وهى أحجار خضراء ، فضربوا عليها بالمعاول فارتدت عنها ، فرأوا أن يتخذوا هذه الأحجار أساسا للبناء الجديد .

ويروى ابن هشام(٢) أن قريشًا وجدت فى الركن كتاباً بالسريانية ، فلم يدروا ما هو مكتوب فيه ، وعهدوا بذلك إلى رجل يهودى ، فكان المكتوب : (أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أفلاك حنفاء ، لا تزول حتى يزول أخشابها(٣) ، مبارك لأهلها فى الماءواللبن».

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٠٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٠٨ .

(٣) الأخشبان : جبلان فى مكة .

الرسول وإعادة بناء الكعبة :

ثم بدأ بناء الكعبة من جديد ، فرأوا تعليتها ، وكان بابها لاصقاً بالأرض منذ عهد إبراهيم ، فقال أبو حذيفة بن المغيرة : يا قوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم ، فإن جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه[1].

جمعت بطون قريش أحجاراً من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة ، وبدأت البناء ، حتى بلغ البناء موضع الركن ، أى الحجر الأسود ، وأصبح ارتفاع البناء حينئذ إلى قامة الرجل ، وأرادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، واشتدت حدّة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش ، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدى بن كعب على الموت ، وأعدوا جفنة مملوءة دما ، وأدخلوا أيديهم فى هذا الدم ، ولذا سموا «لعقة الدم» ، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسا ، ثم رأوا الاجتماع للتشاور وحسم النزاع .

وقف أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش ، فقال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

وكان أول داخل هو محمد ﷺ وكان قد اشترك معهم من قبل فى نقل الأحجار «وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه، وصدق لهجته ، واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا إلى قضائه»[2].

قال محمد : هلم إلى ثوباً حتى إذا أتى بثوب ، أخذ الحجر الأسود

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ١ ص٩٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص٢٧٩ .

فوضعه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعا ، فحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم قام محمد بوضعه بيده فى موضعه .

أكملت قريش البناء حتى أصبح ارتفاع الكعبة ثمانى عشرة ذراعاً ورفعوا بابها عن الأرض حتى لا يدخلها إلا من سمحوا له بذلك ، وجعلوا فى فى داخلها ست دعائم فى صفين ، وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجاً يصعد بها إلى سطحها ، ووضع هُبل فى داخل الكعبة ، كما وضعت فى داخلها الذخائر التى تعرضت من قبل بنائها وسقفها للسرقة .

وهكذا نجح محمد ﷺ فى حسم الخلاف والنزاع ، وجنب القريشيين القتال ، فقال قائل من قريش : واعجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سنًا ، وأقلهم مالا فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً ، أما واللات والعزى ليفوقهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم[1] .

واستمع أبو طالب ، عم الرسول إلى هذه العبارات فأنشد :

إن لنـــا أولـــه وآخــــره ... فى الحكم العدل الذى لا ننكره

وقـد جهـدنا جهـدنا ليغمـره ... وقـد عهدنـا أولـــه وآخــــره

فإن يكن حقـاً ففيـــنا أكـثره

وأعادت قريش الصور والأصنام كما كانت : فقال المسعودى[2] : «كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام ، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس

(١) مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٩ .

(٢) مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٨ .

مفيضا ، والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصى بن كلاب وغيرهم ، فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها كيفية عبادته وما اشتهر من فعله» .

اختلف فى سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش فى أمر الحجر الأسود ، فقيل كان ابن خمس وعشرين ، وقال ابن إسحاق كان ابن خمس وثلاثين ، وسواء أصحت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين فإن إسراع قريش إلى الرضا بحكمه أول ما دخل من باب الصفا ، وتصرفه هو فى أخذ الحجر ووضعه على الثوب ، وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة ، يدل على ما كان له من مكانة سامية من نفوس أهل مكة ومن تقدير جمّ لما عرف عنه من سموّ النفس ونزاهة القصد(١).

الكعبة عند ظهور الإسلام:

قبل ظهور الإسلام ، نبذ البعض - كما فعل محمد ﷺ - عبادة الأوثان ، ونظروا إلى الكعبة على اعتبارها بيت الله الحرام ولذا يجب تخليصها من الأوثان ومظاهر الشرك بالله عز وجل ، كما نظروا إلى الحياة نظرة أكثر سموًا ، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة التى امتدت جذورها إلى أعماق حياة العرب ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربى من أساسه .

شعر بعض العرب بحاجتهم إلى الاصلاح ، وإلى انقاذ الكعبة من أدران الوثنية ، ولكنهم ترددوا فى انتزاع أول حجر من أسس ذلك الدين ، ولذا كانت جهودهم محدودة ، فلم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد البالية التى كانت تنتقص من شأن العرب وأهميتهم فى العصور القديمة .

(١) هيكل : حياة محمد ص١٢٤ .

ولم يكن هناك غير محمد ﷺ الذى كانت تحيط به العناية الإلهية ويشعر بالغيرة الدينية وكانت روحه العالية لا تقبل تعدد الآلهة فى بلاد العرب ، وانتشار الأوثان حول الكعبة وداخلها ، وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات ، وأصبح يفكر دائماً فى تحطيم هذا النظام القائم ، ونجح محمد .

ومن هذه الوثنية الحاطة للقدر ، سما النبى الكريم ببلاد العرب كلها ، فى فترة وجيزة من الزمن قدرها عشرون عاماً ، ولم تقتلع جذور الوثنية من أرض العرب وحدهم ، بل إن بارقة الحماس لعبادة إله واحد ، قد اشتعلت فى أفئدة هؤلاء العرب أنفسهم فحملتهم إلى أقصى حدود ما عرف من العالم وقتئذ لرفع اسم الأحد الصمد.

ولم تفت سعة المسافة فى عضد الرسول ﷺ الذى قام بدعوته ، فانتشلت بلاداً شاسعة لا تقل مساحتها عن مليون وربع مليون من الأميال المربعة من لعنة الوثنية، انغمس فيها الناس انغماساً ميئوساً من مقاومته، لقد العهد بتقاليد متوارثة ، ومحمد بهذا يستحق لقب محطم الأصنام ، ومزيل الوثنية[1].

وصف ابن حزم[2] أثر الإسلام فى تقدم العرب وتخليصهم من مفاسد الجاهلية فقال : «وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كربيع ومضر وإياد وقضاعة ، أو ملوكاً فى بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر .. فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ﷺ ، وهم آلاف ، وصاروا إخوة كبنى أب أو أم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسوله طوعاً بلا خوف غزو ولا اعطاء مال ولا بطمع فى عزّ .. بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحاً منه ، وأوسع بلداً من بلده» .

---

(١) مولا محمد على : محمد رسول الله ص١٥ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل .

ووصف «فون كريمر» أثر الإسلام فى توحيد العرب فقال : جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد ، ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهش والإعجاب وإن فكرة واحدة قد حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية فى جزيرة العرب الوثنية .

الرسول والكعبة :

ظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق فيه أو يرى منه قبولا للدين الجديد ، وكان يصلى هو والمسلمون خفية فى شعاب مكة(1) ، إلى أن أمره الله باظهار دينه .

فقد نزلت عليه هذه الآيات الكريمة : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)﴾ [الحجر]

وجهر الرسول بالإسلام ، وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ الوثنية ، ولجأ فى ذلك إلى طريقة عربية متبعة وقتئذ ، وهى طريقة النداء ، فسار إلى جبل الصفا بظاهر مكة ، ونادى كل بطن من بطون قريش حتى إذا اجتمعوا إليه قال لهم : إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله ، فقال له أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى فى أبى لهب وزوجته : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5)﴾ [المسد]

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهوراً واضحاً ، فقد كان جهر الرسول

---

(1) سيرة ابن هشام جـ1 ص275 .

بالدعوة إلى وحدانية الله ، وغضه من شأن الأوثان ، كل ذلك جعل قريشاً تؤمن بأن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث و «العبادة القومية»[1] ، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ .

كانت قريش إذا اتبعت الدين الإسلامى سقطت قيمة أصنامها وضاعت قدسيتها ، وبذلك تفقد قريش ما كانت تستفيده من قدوم القبائل العربية للحج إلى مكة وتقديم القرابين إلى الأوثان التى نصبتها قريش حول الكعبة . كما كان عزوف قريش عن عبادة الأصنام يفقدها احترامها بين العرب ويجعل تجارتها عرضة للخطر كسائر تجارات القبائل الأخرى بعد أن كانت فى أمان لا يعتدى عليها أحد لئلا يعرض نفسه لنقمة الآلهة وغضبها .

وكان الإسلام يساوى بين الجميع، حينما كانت قريش تدين بنظام الطبقات، فكان سراتهم يأنفون من مخالطة السوقة أو مجالستهم، وكان الإسلام يحرّم الموبقات ورذائل الجاهلية ، وهذه أحب الأشياء إلى زعماء قريش.

اشتد عذاب قريش للمسلمين ، فسمح الرسول بالهجرة إلى الحبشة ، ستمر الرسول يدعو الناس إلى الإسلام، حتى إذا أسلم حمزة بن عبد المطلب، وكان شخصية لها شأن كبير كف القريشيون عن المسلمين بعض أذاهم حتى إذا أسلم عمر بن الخطاب دخل الإسلام فى دور جديد ، فكان المسلمون قبل إسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وجهر المسلمون بتلاوة القرآة الكريم ، كما اعتنق الإسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر [2].

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى قريش ، وإسلام حمزة

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٣٧ .

(٢) المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص٢٥ .

وعمر ، ضربتين أصابتا قريشاً فى الصميم ، فرأى القريشيون يتخذوا أمراً حاسماً ، فاتفقوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم فى بيع أو شراء أو زواج ، ولا يجالسوهم ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم محمداً ﷺ ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة(١).

ظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مهجورين فى شعب من شعاب مكة ثلاث سنين لا يصلهم القوت الضرورى إلا خفية ، وكانوا لا يخرجون إلا فى الأشهر الحرم حيث حرّم القتال فى جميع أرجاء بلاد العرب ، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجاج من زيارة الكعبة بمكة التى كانت تعتبر مركز ديانة العرب حينئذ .

ولكن بعض القرشيين رثوا لحال إخوانهم فى العروبة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعبر زهير بن أمية عن رأيهم فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة(٢) .

وتروى المصادر العربية أن الرسول ﷺ رأى فى حلمه أن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة ، فمحت كل ما فيها من ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى اسم الله وأخبر الرسول عمه برؤياه ، فقدم أبو طالب على المشركين ، وقال : «هلموا إلى صحيفتكم ، فإن كانت كما قال ابن أخى فانتهوا من قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وإن كانت كذباً دفعت إليكم ابن أخى » فوافقوا ، وإذا بالصحيفة قد تآكلت وانمحت عبارتها عدا عبارة «باسمك اللهم» ، وحاول أبو جهل أن ينقض الاتفاق، ولكن هبّ فى وجهه بعض رجالات قريش الذين أحزنتهم القطيعة

(١) ابن هشام جـ١ ص٣٧٥.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ص١٩٤ .

فأرغموا على نقض الصحيفة ، وعاد المسلمون إلى الصلاة عند الكعبة .

عاود الرسول ﷺ نشر الإسلام بين أهل مكة، وكان كل اعتماده فى نشر الدعوة فى موسم الحج ، فكان يلتقى بالقبائل عند الكعبة ، ويدعوها إلى الإسلام ، ولكن عمه أبا لهب كان يصدّهم عن سماعه فيقول : «إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه» ، ولكن كثيراً من القبائل رأت فى الإسلام خير دين يخلصهم من الوثنية ورذائل الجاهلية .

وبعد فترة وجيزة، أسرى بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث عرج به إلى السموات السبع ، وفى تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس(١).

خروج الرسول والمسلمين للعمرة :

هاجر الرسول والمسلمون إلى يثرب (المدينة المنورة) واستمر الصراع بين المسلمين وقريش ، واتخذ هذا الصراع شكل حروب متصلة تسمى «الغزوات» أشهرها غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق .

وفى ذى القعدة سنة ٦ هـ رأى الرسول أن يدخل مكة معتمراً ، لا غازياً، ليعلن للعرب أن دينه الإسلامى يحترم الكعبة كما يحترمونها ، فيقرب بينه وبينهم، ويزيل شيئاً من جفوتهم له .

خرج الرسول لأداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ليس معهم سلاح إلا السيوف فى أغمادها ، وكان معهم هدى كثير ، يسوقونه إلى فقراء أهل مكة .

---

(١) ابن هشام جـ٢ ص(٥-١٠) .

علم أهل مكة بخروج الرسول والمسلمون ، فأصابهم الذعر ، وأجمعت قريش وحلفاؤها على صدّه عن المسجد الحرام ، وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس لمنعه من دخول مكة ، فقال الرسول : ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب(١) ؟

ثم أمر الرسول أصحابه أن يبتعدوا عن طريق خالد ، ثم نزل فى الحديبية.

أرسلت قريش بعض رسلها يطلبون من الرسول العدول عن دخول مكة ، وعاد أحدهم إلى قريش ، وهو عروة بن مسعود الثقفى يقول : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه .

ورأى الرسول أن يفاوض قريشاً فى السماح للمسلمين بالعمرة ، ولكنهم أبوا ذلك عليهم ، وبعثت قريش بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرّة لكن المسلمين هزموهم .

لم تجد قريش مفراً من التفاوض مع الرسول فى الصلح ، فاتفقوا على :

١) أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين .

٢) أن يرد الرسول من تأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد .

٣) من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك .

٤) أن يرجع الرسول هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، فإذا كان العام

---

(١) الطبرى جـ٢ ص ٢٧٨ .

القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش ليس معه إلا سلاح المسافر[1] .

كسب الرسول بهذا الصلح كسبًا سياسياً عظيماً ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التى كانت تقودها لقتاله ، وقد أراد الرسول منها أن تخلى بينه وبين غيرها من العرب ، فمكنته بهذه الموادعة مما أراد ، وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على نطاق واسع ، واعترفت بحق المسلمين فى القدوم إلى الكعبة وأداء العمرة .

كما أخذت قريش بعد صلح الحديبية تغير نظرها إلى الرسول، فأصبحت ترى أنه قريشى على الرغم من العداوة بينها وبينه ، يجمعه وإياها نسب واحد ، وصارت تعجب بعلو شأنه الدينى والسياسى ، مما حمل بعض رجالاتها مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة إلى المدينة واعتناق الإسلام .

وكان هذا الصلح بمثابة اعتراف من قريش بقوة الجماعة الإسلامية ، وإيذاناً بنهاية عهد الوثنية ، وتحرير الكعبة من أوثانها ، وهو ما حدث فعلا حينما تقدم الرسول من المدينة إلى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل مكة دخول الفاتح ، وحطم أصنام الكعبة .

استفاد الرسول من صلح الحديبية ، فقد بدأ نشاطاً عظيماً فى ميدانى السياسة والحرب ، فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب ، فدعا ملوك الروم والفرس والحبشة وأمراء العرب إلى الإسلام ، كما أخذ يضم إلي قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة ، ثم وجه ضربة قاضية إلى ألد أعدائه فى الجزيرة العربية وهم يهود خيبر.

غضب القبائل العربية على قريش لأنها انفردت بالصلح مع المسلمين ، فتخلت عن نصرتها، وعمل الرسول على ضم هذه القبائل إلى الجماعة الإسلامية واحدة بعد أخرى ، أما قريش فقد ظلت على عزلتها وجمودها فى

---

(١) ابن هشام جـ٣ ص٣٦٦ .

الدين والسياسة ، وما لبثت أن أدركت عجز سياستها بعد هذا الصلح فرأت أن تترك أمرها ومصيرها فى يد القضاء والقدر .

حان الوقت الذى حدّدته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداء العمرة فى مكة وقضاء ثلاثة أيام عند الكعبة ، ورحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين يبلغ نحو ألفين ، وصحبوا معهم ستين من الإبل ليضحوا بها عند الكعبة ، وكم تمنى أعداؤه من المشركين أن يمنعوا تقدمه نحو مكة لولا ما بينهم من تعاهد ، فتركوه يتقدم نحو التلال المجاورة.

وعندما أصبح الرسول قريباً من مكة ترك المسلمون أسلحتهم ، وقام بحراستها مائتان من الجند المسلمين ، وقال الرسول : لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن نكون قريباً منه ، فإذا رأينا من المشركين الغدر كان السلاح قريباً منا .

جلت قريش عن مكة ، وصعدت إلى التلال المجاورة ، وتقدم الرسول ﷺ ممتطياً ظهر ناقته القصواء ، يحيط به كبار الصحابة ، ومن خلفهم تقدم المسلمون ، وهم جميعاً ينادون : لبيك اللهم لبيك حتى إذا بلغ الرسول المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى .

ثم قال : اللهم أرحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهرول ، وهرول أصحابه معه ، فلما استلم الركن اليمانى مشى حتى استلم الحجر الأسود مهرولا من جديد ثلاثة أطراف ومشى سائراً ، ومن خلفه المسلمون يحتذون حذوه ، ولما أتم المسلمون الطواف بالكعبة ، انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فسعى بينهما سبعاً ، كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه وأتم بذلك فرائض العمرة.

وفى اليوم التالى ، دخل الرسول إلى الكعبة ، وبقى بها حتى صلاة الظهر،

ولقد كانت الأوثان لا تزال تحيط بالكعبة ، واعتلى بلال ، مؤذن الرسول ، سقف الكعبة وأذن فى المسلمين لصلاة الظهر عندها ، وأمّ الرسول الألفين من المسلمين ، وأقاموا جميعاً فى مكة ثلاثة أيام ، كما نصت معاهدة الحديبية ، زاروا فيها أهلهم وأصدقاءهم ، واطمأنوا على مصالحهم .

الكعبة بعد فتح مكة :

انتشر الإسلام فى معظم أرجاء الجزيرة العربية ، وجالت خواطر كثيرة فى نفس محمد ﷺ جعلته يفكر فى القيام بعمل كبير ، فقد تذكر وطنه الأصل، وتذكر أسرته وأقاربه ، والسنوات السعيدة التى قضاها فى مكة التى مازالت فى أيدى أعدائه المشركين ، وتذكر أن الكعبة التى يحج إليها أولاد إسماعيل لا تزال تحت سيطرة الوثنيين، وعزم على أن يخلص بيت الله الحرام من أيدى المشركين، فيجعله مكاناً لعبادة الله وحده ، ومقصداً للمسلمين .

نقض القريشيون معاهدة الحديبية ، فقد باغتوا خيام بنى خزاعة المسلمين وقتلوا عشرين مسلماً فبدأ المسلمون يستعدون للقتال فقد شعر القريشيون بالخوف من ازدياد قوى المسلمين المستمر ، ورأوا يتجنبوا الدخول معهم فى حروب ومعارك ، فبعثوا بقائدهم أبى سفيان إلى المدينة كسفير للسلام ، فقد كانوا يعرفون صلته بالرسول ، فقد كان الرسول متزوجاً من ابنته أم حبيبة .

وكانت مهمة أبى سفيان صعبة ، فقد كان عليه أن يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف بالأمس منه موقف العداء ، والتمس أبو سفيان وساطة أبى بكر ثم على بن أبى طالب ، وابنته أم حبيبة ، دون جدوى وعاد أبو سفيان إلى مكة خائبًا ، واستقبله القريشيون بالسخرية والاستهزاء .

أعدّ الرسول حملة عسكرية لفتح مكة ، وتحرير الكعبة من الأوثان ثم خرج الرسول على رأس عشرة آلاف مسلم ، وقاد عمر بن الخطاب الجيش عبر

دروب بين الجبال غير مطروقة ، ونهى المسلمين عن اصدار صوت أو دق طبول حتى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم ، وخلال الرحلة ، قدم على الرسول عمه ومعه أسرته ، معلناً إسلامه ، وقابله الرسول بترحاب وحفاوة ، وكان العباس يتولى السقاية بمكة ، وأرسل العباس أسرته إلى المدينة ، وصحب هو الجيش الإسلامى ، ووصل الجيش إلى مرّ الظهران دون أن يكتشف المشركون أمره ، وكان وصوله عندما خيم الظلام ، فأقاموا خيامهم ، وسمح عمر لهم لأول مرّة أن يشعلوا النيران للإضاءة .

اعتنق أبو سفيان زعيم المشركين الإسلام وأراد أن يؤمن أهل مكة على مصيرهم ، وكان الرسول رحيما كريماً فقال : «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن».

قال الرسول ﷺ للعباس فى أمر أبى سفيان : احبسه بمضيق الوادى حتى يرى جنود الله تمر ، وقف أبو سفيان مع العباس فى واد ضيق ، يشاهد كتائب المسلمين وأسلحتهم المختلفة ، وكان العباس يذكر له أسماء القبائل ، فكان أبو سفيان يبدى تعجبه من كثرة عددها ، ودقة نظامها ، وحماسة جندها ، فقد كان المسلمون قد تقدموا كثيراً فى الفنون الحربية .

ثم مر الرسول فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله فى الأنصار ، قال : مالى بأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، فقال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة ، ثم نصحه العباس قائلا : النجاة إلى قومك .

أسرع أبو سفيان إلى مكة ليخبر أهلها بما شاهده من قوة الرسول والمسلمين ، وما عرضه الرسول عليهم من أمان ويبين لهم عبث المقاومة ، فصاح

فيهم : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ولما كان أبو سفيان ألد أعداء الرسول ، فقد كان لكلماته أثرها فى نفوس أهل مكة ، فلم يفكروا فى المقاومة ، وباتوا ينتظرون قدوم محمد إلى مكة .

تقدم الرسول إلى أبواب مكة ، ممتطياً ظهر ناقته ، وعن يمينه سار أبو بكر ، وسار خلفه أسامة بن زيد ، دخل محمد أبواب مكة عند شروق الشمس ، لا كدخول المنتصر الفائز ، بل دخول حاج ورع فى ملابس الإحرام ، وهو يرتل الآيات القرآنية الكريمة :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾ [الفتح]

اتجه الرسول نحو الكعبة حيث تذكر أحداث الماضى ، وكيف كانت الكعبة مكاناً مقدساً عند الأجداد ، وبيت الله الحرام ، وطاف الرسول حول هذا المكان المقدس سبع مرات ، وفى كل مرّة يلمس الحجر الأسود ، وأراد الرسول أن يدخل الكعبة ، ولكن عثمان بن طلحة كان قد أغلق أبوابها ، وأراد علىّ بن أبى طالب أن ينتزع المفاتيح من عثمان ، ولكن الرسول أمره بإعادتها إلى عثمان ، وكان يتولى حجابة الكعبة ، وتأثر عثمان من عطف الرسول ، فأعلن اعتناقه الإسلام واستمر يتولى الحجابة .

تفرغ الرسول لتطهير الكعبة مما حولها من أوثان ، وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنما ، فقام المسلمون بتحطيمها ، وكان هبل أكبر هذه الأوثان ، وكان المشركون قد جلبوه من البلقان فى سوريا يؤمنون أنه قادر على إنزال المطر الذى كان يهتم بنزوله سكان الصحراء القاحلة .

كما كان هناك أوثان تمثل إبراهيم وإسماعيل ، وفى أيديهما الأزلام ، وقال الرسول عن تمثال إبراهيم : «قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام» .

وكانت هناك لوحات تصور الملائكة على صور نساء جميلات ، فحطم الرسول هذه اللوحات ، وعثر الرسول على صورة لحمامة منحوتة على الخشب، فحطمها بيديه وألقى بها على الأرض ، باعتبارها من مظاهر الوثنية .

وحطم صحابة الرسول باقى التماثيل والأصنام ، وهو يقول :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]

ومن الكعبة اتجه الرسول نحو بئر زمزم ، وكان العرب يقدسونها ، فقد فجّر المولى عز وجل هذه البئر لينقذ هاجر وابنها إسماعيل من الموت عطشاً ، وتوارث العرب تقديس هذه البئر حتى إذا اقترب الرسول من البئر قدّم له العباس شربة ماء من البئر ، حتى إذا شربها أصبح ذلك سنة يتبعها المسلمون، وولى الرسول عمه أبا العباس منصب السقاية .

وعند الظهر أمر الرسول بلالاً بأن يؤذن للصلاة من فوق الكعبة ، واتبع المسلمون هذه السنة ، واتجه الرسول بصلاته إلى الكعبة ، قبلة جميع المسلمين فى كل مكان وزمان .

تحدث الرسول إلى أهل مكة ، فأبدى رحمة وعطفاً وشرح لهم تعاليم العقيدة الإسلامية ، وأعلن انتصار المسلمين ، وتعالت صيحات المسلمين «الله أكبر ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وبعد أن انتهى الرسول من الشعائر الدينية ، نزل من على جبل الصفا ، وقدم إليه أهل مكة رجالا ونساء ، يمرّون أمامه يعلنون اعتناقهم الإسلام ونبذهم الوثنية .

وكان الرسول رحيما عطوفاً فقد قدم إليه زعماء قريش ينتظرون حكمه عليهم ، فقال لهم الرسول : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال الرسول : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ودلت تصرفات الرسول فى مكة على أنه نبى مرسل لا على أنه قائد مظفر . فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح فى مركز قوى ، ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو(١).

ولم يكتف الرسول بتطهير الكعبة ومكة من الأصنام ، بل أرسل بعض القواد المسلمين على رأس فرق من الجند ليقضوا على الوثنية بين القبائل المختلفة فى المدن والقرى المجاورة وينشروا الإسلام .

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على الكعبة من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية ، قد اعتقدت القبائل العربية التى زفضت الدعوة بادئ ذى بدء ، أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية لا قبل لغيرهم بها ، فسارعوا إلى الإسلام ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وعرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن أخذت تفد فى هذه السنة وفوداً على الرسول تعلن اعتناقها الإسلام بحضرته ، ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التى اعتاد الرسول أن يمنحها لوفود القبائل العربية(٢).

حج أبى بكر بالمسلمين إلى الكعبة :

كانت الوفود لا تزال تقدم إلى المدينة تعلن إسلامها ، ويلقنها الرسول تعاليم الإسلام ، واقترب موعد الحج ، ولم يستطع الرسول أن يخرج بالمسلمين إلى الحج ، فالوفود تقدم تباعاً ، ولا يزال فى شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن

(١) أرفنج : حياة محمد .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٢ ص (٩٤ ـ ٩٥) .

بعد بالله ورسوله ، وما يزال بها بعض الكفار واليهود على ما كانوا عليه فى الجاهلية ما يزالون يحجون إلى الكعبة فى الأشهر الحرم ، والكفار نجس .

فليبق الرسول إذاً بالمدينة حتى يتم الله كلمته وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته. وليخرج أبو بكر فى الناس حاجاً [1].

كان المشركون لا يزالون يحجون إلى بيت الله الحرام ، وكان لابد أن تتخلص الكعبة من قدوم هؤلاء المشركين كما تخلصت بالأمس من الأصنام ومظاهر الوثنية .

خرج أبو بكر أميراً للحج على رأس ثلثمائة حاج ، يصحبون عشرين من الإبل للتضحية بها عند الكعبة وبعد فترة قصيرة ، أمر رسول الله على بن أبى طالب أن يمتطى ظهر «الأضحى» إحدى الإبل السريعة ، وأن يسرع فى طريقه إلى مكة ، حتى يصل إليها قبل قدوم الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب ليبلغهم سورة من القرآن الكريم نزل بها الوحى.

وقام علىّ بن أبى طالب بالمهمة خير قيام ، فوصل إلى مكة قبل الوقوف على عرفة ، وحينما اجتمع المسلمون فى منى ، وقف علىّ يعلن أن الرسول قد بعثه ليبلغهم سورة التوبة التى نزل بها الوحى ، وهى تبدأ بهذه الآيات الكريمة :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ

(١) هيكل : حياة محمد ، ص٤٥٤ .

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾ [التوبة]

وجاء فى السورة نفسها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) ﴾ [التوبة]

قال علىّ بن أبى طالب : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدّته ، وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك ليرجع كل قوم إلى بلادهم ، ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالكعبة عريان .

حجة الوداع :

أبدى الرسول ﷺ رغبته فى الحج ، ولم يكن الرسول قد حج بعد الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين ، وأسرع المسلمون من جميع أرجاء بلاد العرب يلبون نداء الرسول ، وامتلأت طرقات المدينة بالقبائل العربية التى قدمت من سائر المدن والقرى والجبال ، وامتلأت الوديان المجاورة بخيامهم ، وكان هذا مظهراً رائعاً لانتصار العقيدة الإسلامية .

خرج الرسول مع آلاف من المسلمين ، وصحبوا عدداً كبيراً من الإبل ، وقد زينوها بالأزهار ليذبحوها عند الكعبة ، وكان الرسول فى طريقه من المدينة إلى مكة يتوقف عند كل مسجد ليؤدى الصلاة ، وهو يرفع صوته بالدعاء والشكر لله .

قضى المسلمون الليلة الأولى بعد رحليهم من المدينة فى قرى ذى الحليفة حيث أحرم الرسول والمسلمون وتركوا سلاحهم ، وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، بعد أداء صلاة الفجر امتطى الرسول ظهر ناقته (القصواء) حتى إذا وصل إلى وادى بيضة توجه الرسول إلى ربه ونادى ملبياً ، والمسلمون من ورائه : «لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة والشكر لك لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك» .

وهذا الدعاء كما تذكر الروايات هو الذى توجه إبراهيم به من أعلى جبل أبى قبيص قرب مكة ، مبشراً بالدين الصادق . وتذكر الروايات أيضاً أن صوت إبراهيم كان من القوة بحيث سمعه كل كائن حى فى العالم ، بل سمعه الجنين فى الرحم فقال : لبيك اللهم لبيك .

ولما بلغ المسلمون سرف وهى محلة فى الطريق بين المدينة ومكة ، قال محمد لأصحابة : من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا .

مضى الحجاج فى طريقهم ، وقد انتشروا فى مساحة كبيرة تبلغ عدة أميال فوق الجبال والوديان يتردد فيها ندائهم وصلاتهم ولم يعد هناك أعداء يرهب المسلمون جانبهم ، فقد انتشر الإسلام فى كل مكان فى الجزيرة العربية، واتخذ الرسول نفس الطريق الذى اتبعه عند فتح مكة وما لبث أن دخلها من باب بنى شيبة .

أراد الرسول أن تكون مناسك الحج مثلا يحتذيه المسلمون فى السنوات التالية ، وقد وصل الحجاج إلى مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، وتقدم الرسول والمسلمون إلى الكعبة ، فاستلم الرسول الحجر الأسود فقبله ، وطاف بالبيت سبعاً ، هرول فى الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل فى عمرة القضاء،

وبعد أن صلى عند مقام إبراهيم عاد فقبل الحجر الأسود مرّة أخرى ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا ، ثم سعى بين الصفا والمروة .

وبعد أيام قليلة من وصول الرسول إلى مكة ، لحق به علىّ بن أبى طالب بعد عودته من اليمن ، ويذكر الطبرى أن عليا لم يكن معه هدى يضحى به فأشركه فى هديه ونحر الرسول الهدى عنهما .

وفى الثامن من ذى الحجة «يوم التروية» ذهب محمد ﷺ إلى منى ، فأقام بخيامه فيها ، وصلى فروض يومه ، وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج ، فصلى الفجر وركب ناقته القصواء حين أشرقت الشمس ، وتوجه بها نحو جبل عرفات ، يتبعه المسلمون حتى إذا غربت الشمس ، اتجه الرسول إلى بطن الوادى من أرض عرفة ، وهناك نادى فى الناس : «أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً» .

فقد شعر الرسول بقرب منيته ، وأن هذه الحجة هى حجة الوداع ، فرأى أن يثبت تعاليم الإسلام فى عقول وقلوب المسلمون ، ولم يكتف الرسول بأن لقن المسلمين تعاليم الإسلام ، بل لقنهم قواعد السلوك والأخلاق ومعاملة الناس .

ختم الرسول خطبته بقوله : «فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله ، أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟».

فأجاب المسلمون : «اللهم نعم» ، فقال الرسول : «اللهم أشهد» .

حتى إذا انتهى الرسول من خطابه ، نزل عن ناقته القصواء ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم امتطاها حتى بلغ الصخرات حيث تلا على المسلمين

الآية الكريمة :

﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ③ ﴾ [المائدة]

وأدرك أبو بكر وبعض المسلمين أن الرسول موشك على لقاء ربه ، مما أثار حزنهم .

غادر الرسول عرفات ، وقضى ليلة بالمزدلفة وصلى بها الرسول العشاء ثم الفجر فى اليوم التالى ، ثم امتطى ناقته وبلال يقودها ، وأسامة على عجزها رافعاً ثوباً يظله به من الحر ، واتجه الرسول نحو وادى منى ، ليرمى بحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات إحياء لذكرى إبراهيم الذى رمى بحصياتٍ الشيطان الذى حاول ثلاثاً أن يوقفه فى هذا المكان.

أعتق الرسول ثلاثة وستين عبداً ، ونحر بيده ثلاثة وستين بعيراً وأمر على بن أبى طالب أن يوزع لحومها وجلودها على فقراء الحجاج ، وأقام معمر بن عبد بحلق رأس الرسول ، وبدأ بالشق الأيمن وانتهى بالشق الأيسر ثم طاف الرسول بالكعبة مرة أخرى ، وقدم له عمه العباس بن عبد المطلب الذى كان يتولى السقاية ، شربة ماء من بئر زمزم ، ثم بدأ الرسول والمسلمون رحلتهم إلى المدينة ، مغادراً مكة موطنه الأصلى على رأس قافلة الحجاج .

حتى إذا اقترب الرسول ﷺ من المدينة المنورة صاح : «الله أكبر ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مالك الملك له الحمد والشكر ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» ، وهكذا انتهت حجة الوداع ، وهى آخر مرّة يحج فيها الرسول .

كسوة الكعبة المشرفة

كسيت الكعبة المشرفة فى الجاهلية والإسلام بأنواع كثيرة من الكسا ، منها : (الأنطاع ، والوصائل ، والقباطى ، والعصب) .

والأنطاع : واحدها : نطع ، وهو ضرب من البُسُط .

والوصائل : ثياب حُمر مُخططة يمانية .

والقباطى : جمع قبطية ، وهو من ثياب مصر منسوب إلى القِبْطِ.

والعصب : برود يمانية معصوبة يُجمع غزلها ويُشد.

كسوتها فى الجاهلية

وأول من كسا الكعبة فى الجاهلية تُبع الحِمْيرى(١) .

وأول عربية كست الكعبة الحرير والديباج نُتَيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب(٢) .

كسوتها فى الإسلام

وأما عن كسوتها فى الإسلام : فأول من كساها هو الرسول ﷺ ثياباً يمانية ، وكساها عمر وعثمان رضى الله عنهما قباطى من مصر ، وكساها عثمان رضى الله عنه بروداً يمانية ، وكساها معاوية رضى الله عنه الديباج والقباطى والحبرات ، فكانت تُكسى الديباج يوم عاشوراء ، والقباطى فى آخر رمضان للفطر .

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ص٢٣٨ جـ١ ، والأوائل : لأبى هلال العسكرى ، ص٥٤ .

(٢) مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ، ص٢٥٥ .

وكساها يزيد بن معاوية الديباج الخسروانى .

وكساها الديباج أيضاً ابن الزبير رضى الله عنه وعبد الملك بن مروان .

وكساها ابن الزبير رضى الله عنه حين فرغ من بنياتها القباطى .

وكساها المأمون ثلاث كساً : الديباج الأحمر يوم التروية ، والقباطى يوم هلال رجب ، والديباج الأبيض الذى أحدثه المأمون يوم سبع وعشرين من رمضان للفطر(١).

كسوة الكعبة

فى العصر الحديث

تُصنع كسوة الكعبة فى هذه الأيام فى أم القرى (مكة) .

و صفة كسوة الكعبة هى :

يصنع ثوب مكتوب عليه (بطريقة الجاكارد) عبارات (لا إله إلا الله مُحمد رسول الله) ، (الله جل جلاله) ، (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) ، (يا حنان يا منان) ، ويبلغ ارتفاع الثوب (١٤ مترا) ، ويوجد فى الثلث الأعلى من هذا الارتفاع حزام الكسوة بعرض (٩٥سم) كتبت عليه آيات قرآنية مختلفة بالخط الثلث المركب محاطة باطار من الزخارف الإسلامية ، ويطرز الحزام بتطريز بارز مغطى بسلك فضى مطلى بالذهب ، ويحيط الحزام بالكسوة كلها ويبلغ (٧ مترا) ويتألف من (١٦ قطعة) .

كما يوجد تحت الحزام على الأركان سورة الإخلاص مكتوبة داخل دائرة محاطة بكل مربع من الزخارف الإسلامية ، وعلى الارتفاع نفسه ، وتحت

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ص٢٣٨ جـ١ .

الحزام أيضاً توجد (٦ آيات) من القرآن الكريم كل منها مكتوب داخل منفصل، وفى الفواصل بينها يوجد شكل قنديل كتب عليه (يا حى يا قيوم) ، أو (يا رحمن يا رحيم) أو (الحمد لله رب العالمين) ، وكل ما تحت الحزام مكتوب بالخط الثلث المركب ومطرز تطريزاً بارزاً ومغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب .

أما ستارة باب الكعبة ويطلق عليها البرقع فمصنوعة من نفس قماش الحرير الأسود وارتفاعها (ستة أمتار ونصف متر) ، وعرضها (ثلاثة أمتار ونصف المتر) ، ومكتوب عليها آيات قرآنية وزخارف إسلامية ، مطرزة تطريزاً بارزاً ، مغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب[1].

محمل الكسوة[2]

يبدأ تاريخ المحمل إلى حوالى سنة ٦٤٥ هجرية .

ولقد اهتم الفاطميون بالمحمل ، واستمر الاهتمام به فى عصر المماليك وكانت وظيفة أمير الحج فى المرتبة الثالثة من مراتب الدولة وفى القرن التاسع عشر كانت القاهرة تحتفل بخروج المحمل .

فيسير الجمل الحامل للهودج ، وحوله وأمامه الجنود الراكبة ، والراجلة حتى ينتهى الموكب إلى ميدان القلعة حيث يحتشد وجوه القوم ، وتطلق المدافع تحية للمحمل ، ثم يتابع الموكب سيره إلى العباسية، حيث يتفرق الناس ، وينزل ركب المحمل إلى خيامهم فى فضاء بالعباسية، وينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به ، ثم يرحل المحمل من العباسية إلى السويس على قطار خاص ، ومنها بحراً إلى جدة ، ثم إلى مكة .

وعند عودة المحمل كانت الحكومة المصرية تحتفل به رسمياً ، ويسير

(١) مجلة الكويت ، العدد ١٣٣ ، جمادى الأولى سنة ١٤١٥ هـ / نوفمبر ١٩٩٤م ، ص١٢ .

(٢) وصف الكعبة المشرفة ـ دار البخارى .

الموكب من العباسية إلى القلعة ، وتطلق المدافع .

وتحتفظ كسوة المحمل بمخزن وزارة المالية ، وكانت تبلغ نفقات المحمل فى مطلع القرن العشرين نحو خمسين ألفا من الجنيهات المصرية(١) .

توسعة وعمارة المسجد الحرام من عهد الرسول وحتى نهاية دولة المماليك (٢)

إذا تأملنا الآية الكريمة : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ نجد أن الله تعالى قد جعل البيت محلاً تشتاق إليه الأرواح .. وتحن إليه القلوب .. استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام عندما دعا ربه قائلاً : (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) .

وقد ورد فى فضل الصلاة فى المسجد الحرام عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى» وكذلك قال الرسول ﷺ «صلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه ...» .

وقد اختلف المؤرخون ، وتباينت آراؤهم حول موضوع بناء الكعبة ... فهناك من قال إن الملائكة هى التى بنت الكعبة قبل آدم ـ عليه السلام ـ .. وقال بعضهم إن آدم هو الذى بناها ... وروى أن أول من قام ببناء الكعبة المشرفة (شيث) ابن آدم عليهما السلام ... ولكن الذى ثبت فى القرآن الكريم عمارة إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ فى الآية :

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدى ، ص١٥٢ جـ٨ .

(٢) لبيك اللهم ـ المملكة العربية السعودية ـ وزارة الإعلام .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ [البقرة] .

فقد تم بناء الكعبة فى المكان الذى اختاره الله سبحانه وتعالى وأرشدهم إليه جبريل عليه السلام ... وكان إبراهيم يضع الحجارة فوق بعضها ويناوله إياها إسماعيل ولده .

فى عهد قريش :

عندما أرادت قريش بنيان الكعبة وتسقيفها ... وقد كانت كومة من حجارة مرصوصة فوق بعضها ... كان عمر الرسول الكريم ﷺ آنذاك قبل البعثة خمساً وثلاثين سنة ... وكانت من أهم أسباب إعادة بنيان الكعبة ذلك الحريق الذى شب فيها من جراء تطاير شرارة من جمرة فى يد امرأة كانت تبخر الكعبة بالاضافة إلى أن السيل عندما كان يجئ فإن أجزاء من الكعبة تتساقط ويتهاوى بناؤها .

وبدأت قريش بالهدم ... وجمعت كل قبيلة الحجارة لبنائها وشارك الرسول الكريم ﷺ فى ذلك ... واستمروا فى البنيان حتى بلغ البنيان موضع الركن الذى به الحجر الأسود فاختصموا فيه ... حيث رأت كل قبيلة أن تضعه إلى موضعه دون الأخرى ... حتى تحالفوا وأعدوا أنفسهم للقتال ... وقال أبا أمية بن المغيرة قال فيهم : «يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد يقضى بينكم فيه» .

ففعلوا فكان رسول الله ﷺ أول الداخلين عليهم فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ... رضينا ، هذا محمد فلما انتهى إليهم ، وأخبر بالخير ، قال ﷺ : هلموا إلى ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال ... لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه

وضعه هو بيديه ثم بنى عليه بمدماك من الحجر ومدماك من الخشب حتى أصبحت الكعبة فى ارتفاعها من الخارج ١٨ ذراعاً ... وكانت قبل بناء قريش حينما بناها إبراهيم الخليل عليه السلام تسعة أذرع ... وكان البيت على ستة أعمدة من صفين ..

الفتح الإسلامى لمكة :

وظلت الكعبة على حالتها تلك إلى أن جاء الإسلام ودخل الرسول الكريم مكة المكرمة منتصرا ... وبعد أن استقرت له الأمور طاف حول البيت الحرام فوجده محاطاً بالأصنام من كل اتجاه ، فجعل النبى ﷺ يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام قائلاً : (جاء الحق ، وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ..) وقام بتطهير البيت الحرام وما حوله من الأصنام .

عهد الخلفاء الراشدين :

كانت بيوت العرب المستديرة تحيط بالبيت الحرام ... من كل جانب ، وكانت الأزقة بينها تطل على المسجد الحرام ، يدخل المسلمون منها ليؤدوا الصلاة والطواف بالبيت العتيق ... ولم يكن حول البيت حائط حتى جاء عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فبنى حوله حائطاً جداره قصير ..

وفى خلافة عمر بن الخطاب فى العام الهجرى السابع عشر ازداد عدد المسلمين ، وضاق المسجد الحرام بالمصلين ... فأمر - رضى الله عنه - بشراء المنازل المجاورة حول المسجد وهدمها وضم مساحتها إلى المسجد الحرام ... ويعد بذلك هو أول من قام بتوسعة المسجد الحرام وأول من اتخذ له جداراً ...

وفى العام السادس والعشرين من الهجرة زاد عثمان بن عفان رضى الله عنه فى اتساع المسجد بشراء منازل أخرى كانت مجاورة للبيت الحرام وهدمها وجعل فى المسجد أروقة .

العصر الأموى (٤١ - ١٣١هـ) :

يعدّ من أهم وأبرز الأعمال فى العصر الأموى ما قام به عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ... فمن أعمال عبد الله بن الزبير توسعة المسجد الحرام حيث اشترى منازل اضافية من الناس .

وأدخل مساحتها على مساحة المسجد ... فبلغت بذلك مساحة المسجد بعد زيادة ابن الزبير ٧٤٦٤,٩٦ متر مربع حيث إن زيادة ابن الزبير الإضافية بلغت ربع مساحة الحرم فى ذلك الوقت ...

أما أهم أعمال عبد الله بن مروان فكانت عام ٧٥هـ .. حيث قام بتزيين رؤوس الأعمدة وأروقة المسجد الحرام بالذهب ، وأمر أن يجعل فى رأس كل عمود خمسين مثقالا من الذهب ... وأمر بإضاءة الشارع الواقع ما بين الصفا والمروة ، فوضع مصباحا كبيراً مقابل الركن الأسود ثم قام الحجاج فى عهده بعمل ثلاثة سدود لتخفيف ضغط السيول على مكة المكرمة والمسجد الحرام ...

وقام الوليد بن عبد الملك بتوسعة وعمارة المسجد الحرام فى سنة ٩١هـ ... فنقل إلى المسجد الحرام أعمدة الرخام ، وسقف الأروقة بالصاج المزخرف ... كما جعل للجدران وزرة فى أسفلها، ثم كسا أرضية المسجد الحرام بالرخام الأحمر والأخضر والأبيض الذى أحضره من بلاد الشام ... وعمل الشرفات التى جعلها تتوج جدران المسجد الحرام .

العصر العباسى (١٣٢ - ٦٥٦هـ) :

عندما قام الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بالحج سنة ١٣٧ هـ لفت انتباهه صغر مساحة المسجد الحرام وضيقه ، حتى عزم على توسيعه وشراء ما حوله من المنازل ، وكانت الزيادة فى الشق الشمالى الذى يلى «دار العجلة» و «دار الندوة» فى أسفله إلى أن انتهى إلى منارة «باب العمرة» .. وكان يعرف من

قبل بباب «بنى سهم» ... أما الجهة الغربية فكانت الزيادة على خط مستقيم إلى ما يلى «باب إبراهيم» ... وكان يعرف من قبل «بباب الخياطين» ... ولم يزد فى الجهة الجنوبية لاتصالها بمجرى السيل ووادى إبراهيم ، ولا فى الجهة الشرقية أيضاً ... وكانت زيادة المنصور ضعف ما كانت عليه مساحة المسجد الحرام من قبل ... وقد اتصلت أعمال المنصور من أعلى المسجد الحرام بعمل الوليد بن عبد الملك وعمل رواقاً واحداً دائرياً من أعمدة الرخام على الصحن ... وأمر بزخرفة المسجد الحرام بالفسيسفاء والذهب والنقوش الزخرفية الأخرى .

وفى عهد الخليفة العباسى محمد المهدى ... تمت عمارة المسجد الحرام عام ١٦١ هـ ... حيث أمر بشراء البيوت الواقعة بين المسجد الحرام والمسعى وهدمها وأضاف مساحتها إلى مساحة المسجد الحرام ... وبقيت هكذا حتى خلافة هارون الرشيد ..

أما الزيادة فى الجهة الغربية فى عهد المهدى ، فهى تنتهى إلى باب العمرة وإلى باب إبراهيم ... كما زاد من الجهة الشمالية إلى منتهاه وكذلك زاد من الجهة الجنوبية إلى قبة الشراب وتسمى قبة العباس وقام بنقل أعمدة الرخام من بلاد الشام ومصر عن طريق جدة فحفرت الأرض وعملت جدران الأساس للأعمدة على شكل متقاطع ومتعامد وأنشئت أروقة جديدة وسقفها بخشب الساج واستمر الاصلاح فى المسجد الحرام إلى سنة ١٦٤ هـ .

وعندما حج المهدى للمرة الثانية حيث شاهد الكعبة المشرفة غير متوسطة لأن المسجد الحرام اتسع من الجهات الشمالية والشرقية والغربية فعزم على توسعة الجهة الجنوبية حتى تتوسط الكعبة المسجد الحرام ... وليصبح اجمالى التوسعة التى تمت فى عهد الخليفة المهدى ١٢٠ ألف ذراع وبلغ عدد أبواب المسجد الحرام فى عهد المهدى تسعة أبواب و ٣٨ منفذاً وأضاف ثلاث منائر على المنارة الأولى التى أنشأها أبو جعفر المنصور .

وفى عهد الدولة العباسية الثانية قام المعتمد على الله فى خلافته ببناء وترميم بعض أجزاء المسجد الحرام ... ففى سنة ٢٧١ هـ استبدل خشب السقف فى المسجد بخشب الساج ونقشه بالزخارف المتعددة الألوان .

واهتم الخليفة أبو العباس المعتضد بالله بتوسعة المسجد الحرام خلال عامى ٨١ ـ ٢٨٤ هـ فضم إليه دار الندوة وبنى مكانها مسجداً بأعمدة وطاقات وأروقة مسقفة بخشب الساج من جوانبها الأربعة مزخرفة بالذهب ... وجعل للمسجد الحرام ١٢ باباً ... وعمل للزيادة منارة عرفت بمنارة باب زيادة ، وبلغ طول التوسعة ٤١,٨١ متر ،،، وعرضها ٣٩,٨٣ متر .

وقام المقتدر بالله (٣٠٦ ـ ٣٢٠ هـ) بإدخال تحسينات فى دار الندوة بحيث صار كل من بداخله يشاهد المسجد الحرام دون حاجز كما قام باضافة زيادة إلى باب إبراهيم .

وتعدّ هذه أول زيادة فى العصر العباسى الثانى لأن الخلفاء الذين أتوا بعد المقتدر بالله انشغلوا بالخلافات والفتن الداخلية والتنافس على السلطة .

العصر المملوكى (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) :

فى عام ٧٧١ هـ سقطت مئذنة باب الحازورة بسبب سقوط أمطار غزيرة وعندما بلغ الأمر للسلطان الأشرف شعبان ... قام بعمارة المئذنة المتهدمة التى كانت تقع فى الجانب الغربى من المسجد الحرام .

وفى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٢ هـ ... هطلت أمطار غزيرة أيضاً وهاجم السيل وادى إبراهيم واجياد ... ودخلت المياه إلى المسجد الحرام ... فسقط عمودان بما عليهما من البناء والسقف وحدث فى نفس السنة حريق عظيم فى الجانب الغربى من المسجد الحرام وامتدت النيران إلى الجانب الشمالى وتكسرت الأعمدة الرخامية التى بلغ عددها ١٣٠ عموداً فقام السلطان

الناصر ببناء ما تهدم ... أما السلطان برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) ، فقد قام بتعمير واصلاح أبواب المسجد الحرام ... وعلى إثر سقوط الأمطار الغزيرة سقط سقف الكعبة المشرفة ، فأصدر أوامره فى عام ٨٣٨ هـ بتعميرها من جديد .

وفى عام ٩٧٩ هـ أبلغ السلطان العثمانى سليم الأول بوجود بعض التصدعات فى بناية المسجد ، فأمر بتجديد عمارته تجديداً كاملاً واستبدلت السقوف بسلسلة من القباب ، وأكمل ابنه مراد ما بدأه وانتهت الأعمال فى ٩٨٤ هـ .

توسعة المسجد الحرام من الملك عبد العزيز آل سعود وحتى الملك خالد

ظل المسجد الحرام كما هو بعد آخر توسعة له عام ٣٠٦ هـ ... أى ظل ١٠٦٩ عاماً بدون أية زيادة جديدة ... ومع تنامى أعداد المسلمين ... بالاضافة إلى التطور الهائل الذى شهده العصر الحديث فى وسائل المواصلات التى كان لها دورها الكبير فى اختصار المسافات فيما بين البلدان ... كل ذلك أدى إلى مضاعفة أعداد حجاج بيت الله الحرام ... مما أظهر مدى الحاجة إلى توسعة المسجد الحرام لتستوعب هذه الأفواج المتضاعفة الزاحفة كل عام لزيارة بيت الله الحرام فجاء مشروع الملك عبد العزيز - المؤسس الأول - لتوسعة الحرمين الشريفين استكمالاً لعطائه البارز ودوره الرائد فى إرساء العقيدة الإسلامية واعطاء كل الدعم والاهتمام لبيت الله ومسجد نبيه ولمشاعره المقدسة.

وكانت خطة التوسعة التى وضعت بناء على توجيهات الملك عبد العزيز - يرحمه الله - تقضى بأن تتم عمارة وتوسعة المسجد الحرام بعد الانتهاء من

مشروع توسعة المسجد النبوى إلا أن القدر لم يمهله فعاجلته المنية قبل أن ينفذ مشروعه الجليل .

لذلك فقد جاءت التوجيهات التى أصدرها الملك سعود بتوسعة الحرمين الشريفين عام ١٣٧٥ هـ لتحقيق أمنية راودت المؤسس العظيم وسعى إلى تحقيقها بكل ما يملك من طاقة .

وقد بدأ العمل فى الرابع من شهر ربيع الثانى من ناحية المسعى وأجياد وحول طريق القشاشية ... ونزعت ملكية العقارات التى كانت قائمة حول المسعى واجياد ، وهدمت واستقام المسعى ... وفى هذه العملية هدم جزء من الحرم القديم حول باب على ...

وفى الثالث والعشرين من شهر شعبان ١٣٧٥ هـ أقيم احتفال قام فيه الملك سعود - يرحمه الله - بوضع الحجر الأساسى أمام باب أم هانئ مؤذناً بذلك البدء الرسمى لمراحل التوسعة .

المرحلة الأولى :

وفى هذه المرحلة بنى القسم الخاص بالمسعى بين الصفا والمروة فوق الممر التاريخى القائم والذى كان له فى لذلك الوقت غطاء معدنى مجلفن للسقف وفى بادئ الأمر أقيم الهيكل الخرسانى للمبنى حيث تم بناء المسعى من طابقين لاستيعاب أكبر عدد ممكن من المصلين ، ويبلغ طول المسعى من الداخل ٣٩٤,٥ متر ، وعرضه ٢٠ متراً ... ويبلغ ارتفاع الطابق الأرضى للمسعى ١٢ متراً والطابق العلوى ٩ أمتار ... وقد أقيم فى وسط المسعى حاجز يقسمه إلى قسمين طوليين خصص أحدهما للسعى من الصفا إلى المروة ... والآخر من المروة إلى الصفا لتيسير السعى ، ومنع التصادم بين الساعين ذهاباً وإياباً .

كما تم تنفيذ ممر بين آخرين بالاتجاهين للعجزة غير القادرين على المشى

... وأنشئ للمسعى ١٦ باباً من الواجهة الشرقية ... كما خصص للطابق العلوى مدخلان ، أحدهما عند الصفا والآخر عند المروة ، وبنى لهذا الطابق سُلمان من الداخل المسجد أحدهما عند باب الصفا والآخر عند باب السلام .. وبُنى تحت الطابق الأرضى طابق سفلى يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ونصف المتر.

المرحلة الثانية :

فى عام ١٣٧٩ هـ الموافق ١٩٥٩ م تم الانتهاء من الجزء الخارجى للمبنى الجديد ، وخلال هذه المرحلة تم بناء أساس الرواق الجنوبى وكسيت جدرانه بالرخام ، كما تمت تكسية العقود والسقوف بالحجر المنقوش ... وتم إكمال الجزء المتبقى من مجرى السيل ... وأقيم ممر دائرى فوق الصفا على مستوى سطح الطابق العلوى للرواق الجنوبى والمسعى ، ووصل بينهما بسقف مستدير مقبب وخصص هذا الممر للداخلين من باب الصفا الجديد إلى أحد الطابقين ... وخلال هذه المرحلة تم توسعة منطقة المطاف إلى شكلها الحالى ... كما أقيمت السلالم المؤدية لبئر زمزم .

المرحلة الثالثة :

وبدأ تنفيذها فى عام ١٣٨١ هـ الموافق ١٩٦١ م ... بقرار تاريخى حكيم للملك فيصل بن عبد العزيز - يرحمه الله - بتعديل التصميم الأصلى مع الإبقاء على المسجد العثمانى ... وتم خلال هذه المرحلة بناء القسم الثانى من الرواق الجنوبى الغربى ... وإكمال الطابق السفلى فى هذا الجانب ... وبناء الرواق الشمالى فى الرقعة الممتدة من باب العمرة إلى باب السلام .

وتم إكتمال بناء الطابق السفلى الذى أقيم تحت أبنية الحرم عدا المسعى ... وكان من ضمن مشروع التوسعة فى ذلك الوقت إزالة الزوائد التى كانت قائمة فى صحن المسجد الحرام خاصة مقام إبراهيم الذى كان بعض العامة

يعتقدون أنه قبر إبراهيم - عليه السلام - بينما الحقيقة أنه حجر لا تزيد أبعاده عن ٤٠ × ٤٠ سم ... وهو الحجر الذى وقف إبراهيم عليه أثناء قيامه ببناء الكعبة ومعه ابنه إسماعيل - عليهما السلام - واستبدلت الزوائد التى أزيلت بغطاء زجاجى من الكريستال الفاخر بمساحة ١٨٠ × ١٣٠ سم وقطر ٨٠ سم وسماكة ٢٠ سم وارتفاع متر واحد ووزن ١٧٠٠ كيلو جرام ... وأزيح الستار عن هذا المشروع فى ١٣٨٧/٧/١٨ هـ (١٩٦٧م) ... وبلغ ارتفاع المقام بأكمله من قاعدته إلى قمته حوالى ثلاثة أمتار .

واستطاع المصلون والطائفون أن يروا مقام إبراهيم عليه السلام على حقيقته داخل الغطاء الزجاجى وأصبحت مساحة المسعى بعد أن ألحق ٨ آلاف متر مربع للطابق العلوى و ٨ آلاف متر مربع للطابق الأرضى ... وأنشئت حول الحرم خمسة ميادين عامة وأصبح عدد أبواب الحرم ٦٤ باباً وحفرت أنفاق فى جميع الاتجاهات مزودة بدورات للمياه ومغاسل للوضوء وذلك لتأمين الحجاج من حوادث الحركة المرورية وتخفيف الازدحام عند الخروج من الحرم أو الدخول إليه ...

وقد أصبحت مساحة المسجد الحرام بعد هذه التوسعة ١٥١ ألف متر مسطح بعد أن كانت ١٢٨ ألفا ... مما جعل الحرم يتسع لحوالى ٤٠٠ ألف مصل وشملت هذه التوسعة كذلك ترميم الكعبة المشرفة وتوسعة المطاف بتجديد مقام إبراهيم عليه السلام .

أحدث وأضخم توسعة وعمارة

فى آخر زيارة قام بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز لتفقد مشروعات توسعة المسجد النبوى الشريف يوم الاثنين الموافق الثالث من شهر جمادى الآخر لعام ١٤١٢ هـ ... جدد - حفظه الله - تأكيده وحرصه

الدائمين على خدمة ورعاية الحرمين الشريفين ، وقال : «أود أن أؤكد أن كل شئ أستطيع تقديمه للحرمين الشريفين ولمكة المكرمة مهبط الوحى والمدنية المنورة مشع نور الرسالة ، لن أتردد لحظة فى المبادرة إلى تقديمه ... لأن ميزة هذا البلد إنما تتجلى فى خدمة الحرميين الشريفين ... ورعاية الحجاج والزوار والمعتمرين على مدار العام ... وسوف لا أدخر وسعاً بالجهد والمال فى سبيل استكمال العمل الإسلامى الحضارى التاريخى الذى وهبت نفسى وإخوانى فى سبيل تحقيقه، وأحمد الله أن شرفنى الله وأخوانى ... وأهل هذا البلد بهذا الفضل العظيم ..» .

إن ما نستطيع أن نستخلصه من كلمة خادم الحرمين الشريفين ... هذه العناية التى نلمسها من حكومته تجاه المدينتين المباركتين وأن هذا الاهتمام الذى يوليه الملك فهد بن عبد العزيز شخصياً لمشروعاتها ليس وليد اللحظة ... إنما هو امتداد طبيعى لسياسته عندما كان ولياً للعهد ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء ... فقد أولى اهتماماً خاصاً بمتابعة خطوات تنفيذ مشروع الملك خالد بن عبد العزيز - يرحمه الله - وكان حريصاً على أن يتفقد بنفسه سير العمل للاطمئنان إلى دقة التنفيذ واستمراريته دون توقف .

ومن هنا كانت مشروعات التوسعة التى أمر بتنفيذها فى رمضان ١٤٠٦هـ الموافق ١٩٨٦م ، والتى تعد من أضخم وأكبر وأحدث المشروعات التى شهدها الحرم المكى على مر العصور. والتى بدأت تظهر ملامحها .

وإذا أخذنا فى الحسبان من واقع الاستعراض التاريخى لتوسعات ملوك المملكة ما كانت عليه المملكة فى بداية تاريخ التنمية الشاملة وتكوين بنية الوطن العصرى ... فإننا بالتأكيد ندرك ما ستكون عليه أحدث وأضخم توسعة وعمارة للمسجد الحرام فى مشروع خادم الحرمين الشريفين .

وكان خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - حفظه الله - قد وضع حجر الأساس لتنفيذ مشروعه الضخم يوم الثلاثاء الثانى من صفر ١٤٠٨هـ الموافق ٣ سبتمبر ١٩٨٨م . وقد بدأت خطوات التنفيذ الفعلية للمشروع فى جمادى الآخر ١٤٠٩هـ الموافق ١٥ فبراير ١٩٨٩م ... وكان خادم الحرمين الشريفين قد لاحظ خلال احدى زياراته للمسجد الحرام أن التمديدات الكهربائية والصوتية تأخذ حيزاً واسعاً من سطح الحرم ... فأمر بجمعها فى أماكن محددة من السطح وتغطيتها باقامة قباب فوقها ... وبذلك تتوفر مساحات واسعة فى سطح الحرم يمكن أن تتسع لـ ٩٠ ألف مصل ... وقد نفذت أوامره - حفظه الله - خلال ثمانية أشهر من المحرم ١٤٠٩هـ إلى رمضان من نفس العام ... وبذلك اتسعت القدرة الاستعابية للحرم المبارك .

مكونات المشروع :

روعى فى تصميم المشروع ربط توسعة المسجد الحرام بالتوسعات السعودية السابقة وذلك بتوسيع الفتحات الموجودة على الواجهة ما بين باب الملك وباب العمرة مع الحفاظ على العناصر الانشائية الأولى للتوسعة ويتكون المشروع من بدروم سفلى وبدروم علي ودور أرضى ودور أول ... والسطح ... والبدروم السفلى مخصص لأعمال الميكانيكا والتكييف ، والبدروم العلوى مخصص للصلاة ، وجزء منه لأغراض التكييف ... أما الدور الأراضى فيتضمن بعض المكاتب والمستودعات وكذلك الدور الأول مكون من مساحات مخصصة للصلاة مع وجود بعض المكاتب والمستودعات لادارات الحرم المختلفة، أما السطح فيوجد به استوديو للإذاعة ، وكذلك يوجد ثلاث قباب على سطح التوسعة الجديدة تغطى الفناء فى كل من الدور الأرضى والأول .

وقد تم الانتهاء من الأساسات ودور البدروم السفلى ودور البدروم العلوى

وتم عمل كامل للدور الأرضى والدور الأول ... وتم الربط بين الحرم القديم والتوسعة الجديدة بشبكة اتصالات وفقاً لتكنولوجيا الاتصال الحديثة .

المداخل :

يضم مبنى التوسعة مدخلاً رئيساً جديداً ، وثمانية عشر مدخلاً عادياً للحرم المكى ، بالاضافة إلى مدخلين جديدين للأقبية ... وبهذا يصبح عدد مداخل المسجد الحرام بعد التوسعة أربعة مداخل رئيسية ... و ٤٥ مدخلاً عادياً ... و ٦ مداخل للأقبية ويصبح عدد المآذن بعد التوسعة ٩ مآذن حيث أضيفت مئذنتان جديدتان بنفس تصميم الـ ٧ مآذن السابقة .

مساحة المشروع :

ويتضمن المشروع اضافة جزء جديد إلى المبنى الحالى للمسجد من الناحية الغربية بين باب العمرة وباب الملك ... وتبلغ التوسعة الجديدة ٧٦ ألف متر مربع تتسع لحوالى ١٩٠ ألف مصل ... ويهدف المشروع إلى تحسين وتجهيز وتطوير الساحات الخارجية للمسجد للصلاة بمساحة اجمالية تبلغ ٥٩ ألف متر مربع تكفى لاستيعاب ١٣٠ ألف مصل .

وبذلك تصبح المساحة الاجمالية للمسجد الحرام بعد التوسعة شاملة توسعة السطح الذى تبلغ مساحته ٦١ ألف متر مربع ... ٣٦١ ألف متر مربع تستوعب ٧٣٠ ألف مصل فى خلال موسم الحج .

المرافق العامة المحيطة بالحرم :

ومما يذكر أن جميع مشروعات التوسعة السعودية للحرم المكى الشريف عنيت بتهيئة الساحات المحيطة بالحرم ، لأداء الصلاة فيها لدى امتلاء داخل المسجد بالمصلين ... وقد تضمن مشروع خادم الحرمين الشريفين على تأمين

الساحات المواجهة للتوسعة الجديدة وتجهيزها بحيث تستوعب أعداداً أخرى من المصلين وتهيئتها لتصبح عاملاً مساعداً لخدمة المسجد الحرام .

وقد تضمن المشروع انشاء بدروم للخدمات تحت الساحات المخصصة للصلاة شرق المسعى بطول ٧٥٠ متراً ، وبعرض يتراوح ما بين ٢٤ إلى ٣٦ متراً ... كما يتضمن المشروع انشاء معابر خاصة لربط الخدمات الممتدة حول الحرم المكى بنفق السوق الصغير .

ويبلغ طول المعابر حوالى ٦ آلاف متر ، وبعرض يتراوح ما بين متر ونصف إلى ٨,٥ متر ... وتم العمل ببدروم الخدمات شرق المسعى ... ومناطق المروة والقشاشية بالاضافة إلى عمل معابر جديدة لربط الخدمات بالمنطقة من القشاشية حتى قبة الصفا ... ومنها حتى شارع اجياد السد ، والمنطقة خلف مستشفى اجياد وشارع الهجرة .

خمسة مبانى للسلالم المتحركة :

ولتسهيل وصول أفواج المصلين إلى سطح التوسعة فى المواسم ... تم اضافة مبنيين للسلالم المتحركة مساحة كل منهما ٣٧٥ متراً مربعاً ويحتوى كل مبنى على مجموعتين من السلالم المتحركة ... وقد صممت هذه السلالم لتأمين حركة المصلين فى أوقات الذروة وخلال المواسم مما يسهل عملية صعود المصلين إلى سطح الحرم خاصة كبار السن دونما عناء أو مشقة ... وأصبح اجمالى عدد السلالم فى المسجد الحرام بعد التوسعة خمسة مبان ...

الراحة والأمان لضيوف الرحمن :

وحرصاً من خادم الحرمين الشريفين على توفير مزيد من الراحة والأمان لحجاج بيت الله الحرام أمر بتطوير جميع المناطق السكنية المجاورة للحرم ... ونفذ حالياً مشروعًا آخر ضمن مشروع خادم الحرمين الشريفين لتحسين

وتطوير المناطق الشرقية والشمالية والغربية المحيطة بالحرم وتبليط شوارعها بالبلاط المقاوم للحرارة ... وتم انشاء أحدث الوحدات السكنية على النمط الإسلامى المعمارى ، وذلك فى الجهة الجنوبية والغربية للحرم تخصص لزوار وقاصدى بيت الله الحرام كما تم ضم مساحة السوق الصغير إلى الحرم .

شخصية معمارية فنية :

لقد اكتسب المسجد الحرام بعد ظهور الإسلام صبغة فنية معمارية أكسبته شخصيته الدينية الروحانية الساحرة ... حيث تواكب مع ظهور الإسلام ميلاد فنى جديد أطلق عليه «الفن الإسلامى» الذى تميز بزخارفه التى سارت فى سبيل التجريد بتحوير الزهور وتنسيقها ورسمها بأسلوب لا يبعدها عن أصوله الطبيعية أو بتركيب رسوم هندسية ... ثم بتزيين هذا كله بالكتابة العربية الجميلة فتكسبها رشاقة واتزاناً ... ولإيمان ملوك الدولة السعودية بدءًا من الملك عبد العزيز - يرحمه الله - وحتى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - حفظه الله - بأهمية الفن الإسلامى وما له من قيمة جمالية مساعدة فى اضفاء نوع خاص من النضوج الدينى وترسيخ مبدأ تكافل الفنون فى إبراز ما يحمله الدين الإسلامى من قيم ومبادئ وروحانيات ومشاعر مقدسة ...

فقد حرص ملوك الدولة السعودية على الاستعانة بالفن الإسلامى برموزه وزخارفه الجمالية فى مشروعات تطوير المسجد الحرام ...

وقد ظهر هذا واضحاً فى تصميم مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز الذى حرص على ضرورة استلهام التراث الإسلامى القديم فى أعمال تطوير المسجد الحرام ... حيث انشئ مبنى التوسعة وهو يحمل فى كل قطعة منه لوحة إسلامية فنية رائعة الجمال دون أن تشغل الزائر عن قدسية الرحلة . وتضفى فى ذات الوقت جواً مفعماً بالهدوء والراحة النفسية .

قابلية المشروع للتطوير :

وقد روعى فى التصميم الذى وضع للحرم المكى الشريف أن يكون على لبشة خرسانية سمكها ١٠٠ سم ... تم تصميمها ضد الزلازل ... كما روعى فى الأساسات أن تتحمل اضافة دور ثالث فوق الدورين الأرضى والأول .

ويبغ عدد الأعمدة بكل طابق بالتوسعة الجديدة ٤٩٢ عموداً قطر ٨١ سم للأعمدة المستديرة وطول الضلع ٩٣ سم للأعمدة المربعة ... أما ارتفاع الأعمدة فيبلغ فى الطابق الأول ٤,٧٠ متر، وبالطابق الأرضى ٤,٣٠ متر ، وذلك من منسوب الأرضية وحتى نهاية التاج ... وقواعد الأعمدة المربعة تبلغ ١.٠٢×١.٠٢×٥٤ سم .

أما قواعد الأعمدة المستديرة فهى مسدسة الشكل بعرض كلى ٩٧ سم وارتفاع ٥٤ سم وجميع قواعد الأعمدة مكسية بالرخام ... وبالنسبة لارتفاعات أدوار مبنى التوسعة فيبلغ الارتفاع الداخلى لطابق البدروم أربعة أمتار ولكل من الطابقين الأرضى والأول ١٠ متر ... والواجهات الخارجية للتوسعة يبلغ ارتفاعها ٢٠,٩٦ متراً محلاة بالزخارف ومكسية بالرخام والحجر الصناعى وقد استخدم فى تثبيتها أحدث الطرق باستخدام الزوايا المصنوعة من الحديد الذى لا يصدأ لضمان طول عمرها .

كما كما تم تحلية العقود والكرانيش ببلاط من الحجر الصناعى ... وتم تبليط جميع أرضيات المسجد الحرام برخام مزين بزخارف إسلامية مع الحفاظ على الزخارف الإسلامية التى تمت خلال التوسعة السعودية الأولى .

وتتضمن التوسعة أيضاً ثلاث قباب بمنتصف التوسعة تقريبا بمحاذاة المدخل الرئيس حيث تشغل كل قبة ١٥ × ١٥ متراً وبارتفاع حوالى ١٣ متراً .. وتحتوى القبة على فتحات بكامل محيطها والشكل الخارجى لها مماثل للقباب

الموجودة على سطح الحرم الحالى .

أما الأعمدة الدائرية تكسيت بالموازييك والأعمدة المربعة بالرخام بكمية تقدر بحوالى ٦٠٠٠ متر مربع ، وتيجانها من الرخام المطعم بالنحاس لتعميق الإحساس بالهدوء والطمأنينة للمصلين وقد صنعت الأبواب الخارجية من معدن مصقول بحليات من النحاس ، أما الشبابيك والمشربيات ، فصنعت من ألمونيوم أصفر مخروط ، ومعدن مصقول بحليات نحاسية أيضاً .

الحركة الميكانيكية :

أما من الناحية الميكانيكية الحديثة فقد نفذت ضمن المشروع طريقة جديدة للتهوية والتبريد ... ففى الطابق تحت الأرضى تمت التهوية بدفع الهواء البارد بمرواح مركزية عبر مرشحات (فلاتر) تنقى الهواء من الغبار وطرد الهواء الفاسد من الأبواب الخارجية ... ومن الواجهة المقابلة لساحة الحرم ، وفى الطابقين الأول والأرضى تتم التهوية بصورة طبيعية من خلال النوافذ المتقابلة مع استخدام مراوح تقليب الهواء على الأعمدة لتخفيف درجة الحرارة إلى أقل درجة مستطاعة ... بالاضافة إلى أنه تم ربط غرف الكهرباء بمصدر احتياطى من المولدات الاحتياطية ... كما تم تزويد التوسعة بنظام إنارة (يو/ بى / إس) كنظام احتياطى للإضاءة .

ويعتمد التصميم الخاص بالتوسعة على ربط الحركة الميكانيكية بالمسجد الحرام بنظام تحكم للأنظمة الكهربائية والميكانيكية مزوداً بالحاسب الآلى .

وتم انشاء استديو تليفزيون مزود بمعدات وأجهزة اتصالات حديثة متطورة بالاضافة إلى عدد كبير من الكاميرات التى تغطى معظم مناطق الحرم والتوسعة لضمان حسن إرسالها للبث التليفزيون من خلال الأقمار الصناعية لجميع الدول العربية .

وتم تطوير محطة المياه التى تغذى المسجد الحرام حيث يتم ضخ المياه المبردة بأنابيب عبارة عن ممرات صندوقية خرسانية تحت الأرض للمسجد الحرام والتوسعة ووحدات مناولة الهواء الموجودة فى البدروم ... وتم تخصيص مياه بئر الداوودية لتغذية وحدة مكافحة الحريق .

توسعة خادم الحرمين الشريفين بالأرقام :

- بلغت تكاليف مشروع تحسين سطح الحرم ومرافقة ٣٠٠ مليون ريال .

- أدرجت مشروعات توسعة الحرم المكى المبارك ضمن خطة التنمية الرابعة ... حيث بلغ اجمالى المبالغ التى تم رصدها للمشروع ١١٣٣ مليون ريال وزعت على سنوات الخطة .

- تعاقدت الدولة مع شركات وطنية متخصصة للقيام بأعمال الصيانة العامة ... بقيمة اجمالية ٢١ مليون ريال ، وأعمال النظافة وخدمات السقى والفرش بقيمة اجمالية ٥٤ مليون ريال لمدة ثلاث سنوات ... وتشغل وصيانة الأعمال الكهربائية باجمالى ١٣٣ مليون و ٥٩٠٦٠ ريالاً لمدة ثلاث سنوات .

- زود المسجد المبارك بساعات الكترونية ومراوح وسجاد واستبدل صحن المطاف برخام مقاوم للحرارة وجددت أبواب الحرم وأثثت مكتبة المسجد باجمالى ٨٠ مليون ريال .

- نفذ مشروع تبريد مياه زمزم بتكلفة ٦٠ مليون ريال .

- بلغ عدد مصابيح الإنارة ٥٥ ألف مصباح تتصل ببعضها بواسطة أسلاك مجموعها ٣٥ ألف متر طولى .

- تستهلك المرافق العاملة بالكهرباء ٨ ميجاوات .

- بلغت كميات الحفر مليون متر مكعب ... وعمق الحفر ١٠ أمتار .

– استهلك المشروع ١١١٧٥٠ متراً مكعباً من الخرسانة المسلحة ... كما استهلك ١٢٧٠٠٠ طن من الحديد المسلح ... أما الجدران فهى من الحجر الصناعى ، حيث استهلك المشروع ٤٥ ألف متر مكعب منه .

– بلغت مساحة الأرضيات الداخلية التى تم تبليطها برخام مزين بزخارف إسلامية ٨٢ ألف متر مربع ... أما المساحات الخارجية فقد بلغت مساحة الرخام الذى بطلت به ٤٦ ألف متر مربع ...

– مساحة البدروم ٢٠ ألف متر مربع يتسع لـ ٣٣ ألف مصل .

– مساحة الدور الأول ٤٧ ألف متر مربع يتسع لـ ٧٧ ألف مصل .

– مساحة المطاف والمسعى ٣٠ ألف متر مربع يتسع لـ ١٥٠ ألف مصل.

– مساحة السطح بعد التحسين ٤٢ ألف متر مربع يتسع لـ ٩٠ ألف مصل .

– عدد السلالم الكهربائية ٥٦ سلماً .

– تم انشاء محطة تكييف فى منطقة كدى على بعد ٣.٥ كيلو متر من الحرم تزيد طاقتها على ١٤٠ ألف طن .

التوسعة فى اتجاه السوق الصغير :

– مساحة البدروم ١٩ ألف متر مربع ويسع ٣٥ ألف مصل .

– مساحة الدور الأرضى ١٩ ألف متر مربع ويسع ٣٥ ألف مصل .

– مساحة الدور الأول ١٦ ألف متر مربع ويسع ٢٧ ألف مصل .

أهم المراجع

١ - السيرة النبوية - لابن هشام .

٢ - البداية والنهاية - لابن كثير .

٣ - تاريخ الطبرى .

٤ - تاريخ الإسلامى - للذهبى .

٦ - مروج الذهب - للمسعودى .

٧ - الكعبة على مر العصور - د/ على حسنى الخربوطلى - دار المعارف .

٨ - وصف الكعبة المشرفة - الشيخ عثمان إبراهيم عامر - دار البخارى.

٩ - أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام ، ص ١١٧ ، أحمد بن محمد المكى ص ١١٩ ، ١٢٧ .

١٠ - دلائل النبوية للبيهقى .

١١ - تفسير الطبرى ص ٢٠ ج٧ حديث ٧٤٢٨ .

١٢ - الروض الأنف - للسهيلى ص ٢٢٢ ج١ .

١٣ - تاريخ الأزرقى ص٢٧ ج١ .

١٤ - شفاء الغرام ص١٩٦ ج١ ، ص١٩٦ ج١ ، ص١٩٧ ج١ .

١٥ - ديوان زهير بن أبى سلمى ص١٤ .

١٦ - أخبار مكة - للفاكهى ص٢٢٦ ج٥ .

١٧ – حاشية الجمل على الجلالين ص١٠٧ ج١ .

١٨ – دائرة معارف القرن العشرين ج٨ ص١٤٦ ، ١٥٢ .

١٩ – مسالك الأنصار ج١ ص١٠٢ – ١٠٤ .

٢٠ – رحلة ابن بطوطة ج١ ص١٠٥ – ١٠٦ .

٢١ – المستطرق – للأبشيهى .

٢٢ – حياة محمد – هيكل .

٢٣ – ابن بطوطة – رجلان .

٢٤ – دائرة معارف القرن العشرين ج٨ .

٢٥ – الملك والنحل – ابن حزم .

٢٦ – أنولد – الدعوة إلى الإسلام .

٢٧ – اتباع الإسماع – للمقريزى .

٢٨ – طبقات سعد ج١ ، ج٢ .

٢٩ – مثينى الغرام .



الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس